الشيطان
في حضرة النساء
"مجموعة قصصية"
فؤاد البسطاوي

اسم الكتـــاب : الشيطان في حضرة النساء
التأليـــــف : فؤاد البسطاوي
مراجعـــة لغوية
إخـــراج فنـــي : هيام فهيم
رقم الإيـــداع : 2020 / 9637
الترقيـم الدولي : 978-977-6797-11-6
الناشـــــر : المثقف بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256
Scribe20199@gmail.com
اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019
اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019
جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

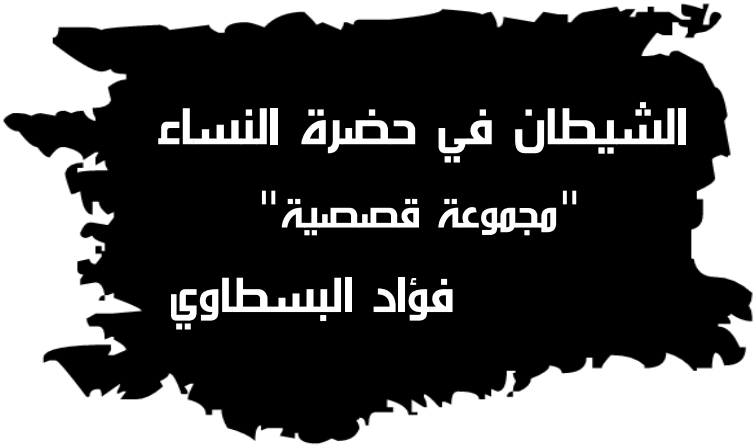
الشيطان في حضرة النساء
"مجموعة قصصية"
فؤاد البسطاوي

إهداء

إلى أمي وجدتي
سيدتين بحجم الوطن ..
هم الوطن.

إلى كل فتاة قنوعة
أنت ... أشرفهم.

إلى كوفيد ١٩ شخصيًا
سحقًا لك حتى يصل ..
السحق إلى شاهق السماء.

الشيطان في حضرة النساء

نكران الجميل خيانة للشرف والأمانة.
فرانسوا دو لاروشفوكو

كان العم ماركو غاضبًا جدًا، انتابني شعور بالدهشة والاستغراب، لكن سرعان ما زال اللبس، حين استفقت على صرخته في وجهي:
-نتائج امتحاناتك رهيبة يا محمد، لقد نجحت في امتحان الفنون، ولكن بالمقابل نتائجك في التاريخ واللغة الإنجليزية وعلم الأحياء والرياضيات والفيزياء والكيمياء كانت متدنية جدًا وكارثية.

أجبت متلعثمًا:
-أنت، أنت لا تفهم، أنا لست مهتمًا بهذه المواد، أريد أن أكون فنانًا، سأدرس الفن والتصوير الفوتوغرافي في مدرسة الفنون في برلين.

في الحقيقة لم تعد لديّ أية رغبة في الذهاب إلى مدرستي الحالية في دورتموند، ولكن رسالة مدرسة الفنون هي الأخرى لم تكن تحمل أخبارًا سارة، فقد أجابوا برفض طلبي بخصوص هذه السنة، ولكنهم منحوني وعدًا بالالتحاق بالمدرسة السنة القادمة.

كان وعدًا أثلج صدري، وأعاد إليّ بعض الأمل في أن أحقق حلمي، لكنه سرعان ما أُحبط برسالة من السيد ماركو - الرجل الذي احتضنني وأنقذني من الشارع عندما دخلت ألمانيا، ولم يبخل عليّ بأي دعم أو مساعدة، لكن ها هو المسكين اليوم غارق في وحل الديون ..

-سيتعين عليك الحصول على وظيفة.

كنت غير سعيد للغاية، فقمت بالرد عليه برسالة أخرى:

-لا أريد الحصول على وظيفة، أنا في السابعة عشرة فقط. أريد أن أرسم وألتقط صورًا، ذات يوم سأجعل من نفسي فنانًا موهوبًا.

رد عليّ بلهجة هادئة، ولكنها لا تخلو من صرامة:

-لا تكن غبيًا! عندما تكون شابًا عليك أن تبحث عن المال، لكنك حتى لا تعرف ما تريد! الرسم للأطفال، عليك أن تجد وظيفة أو تعود إلى المدرسة.

لم يعد لدي أي خيار بعد هذا الذي سمعته، أحسست بسحابة من الكدر تخيم على سمائي، فخرجت من المنزل لأتنفس هواء المدينة، جبت الشارع الرئيسي في دورتموند طولًا في اتجاه الجسر، الغابة البكر تلمس بضفافها نهرًا شاسعًا وقويًا، من هذه الأرض الخصبة تنمو أشجار ضخمة وآلاف الأنواع من الزهور.

كان اليوم يوم عمل، وكانت الشوارع خاوية على عروشها مما زادني - رغم بهاء هذه المناظر - ضيقًا وإحساسًا بوحدة رهيبة، كان الليل قد أرخى سدوله واشتدت العتمة؛ نخيم على المكان صمت مطبق، لذلك قررت الرجوع إلى البيت، أحسست بالجوع فعرجت على محلات الأكلات السريعة، طلبت طبقًا من الدجاج المشوي لكنه لم يكن أبدًا بلذة دجاج "سي حمد" في مدينة "الوليدية".

كتبت رسائل إلى العديد من الشركات، أرسلت أربعين رسالة طلب عمل وتلقيت أربعين خطاب رفض، لا توجد وظائف لي هنا.

كانت الأيام تمر متشابهة، وتدخلني في دوامة من اليأس إلى أن توصلت ذات صباح برسالة من المكتبة العامة في دورتموند، لقد حصلت على وظيفة مساعد، طلبوا مني أن أبدأ العمل على الفور.

قال مدير المكتبة:

-ممتاز، هذه فرصة عظيمة، ستبدأ كمساعد ولكن في غضون عشرين عامًا يمكنك أن تصبح كبير أمناء المكتبات.

كانت مهمتي الجديدة سهلة للغاية، مكتبة دورتموند العامة مكتبة صغيرة، تقع في الضاحية الجنوبية للمدينة، زوارها قلة لأنها قديمة وتعامل صاحبها لم يكن جيدًا مع الزبنائن، ورغم أنها تظل مفتوحة طوال اليوم فلا يرتادها في الغالب سوى بعض الزبنائن الذين

يستعيرون الكتب لقراءتها في منازلهم، أو بعض الأشخاص الذين يقصدون المكتبة لقراءة صحف اليوم.

كنت معظم الوقت أجلس في المكتبة دون أن أقوم بأي عمل يذكر، اللهم إلا التحقق من الكتب التي اختارها الزبائن، وتسجيل أسماء الذين استعاروها، لا شيء كان يخيم على تفكيري سوى مدرسة برلين للفنون الجميلة، والحفلات المثيرة والأجواء الممتعة التي حكى لي عنها الأصدقاء، كنت أشعر بغيرة حانقة وأنا أستعرض هذه الصور في مخيلتي، أشتاق أن أكون معهم.

في المكتبة كنت أجد متنفسًا لأمارس هوايتي وأطلق العنان لريشتي، فأرسم أحيانًا الأشخاص الذين يدخلون المكتبة، كانت ساعة الحائط القديمة التي تتدلى في مدخل المكتبة تشير إلى العاشرة وعشر دقائق، فوق رأسي كان ريش المروحة يحرك الهواء الساخن، ويبعث بعض الدفء على المكان، فالجو ممطر، والطقس شديد البرودة، في الخارج الأمطار تنزل بغزارة، تعلقت نظرتي فجأة بهيكل رشيق.

كانت تخترق الباب الخارجي للمكتبة، لقد جذب انتباهي المعطف الأحمر القصير والحذاء الشتوي العالي، يبدو أن الشقراء الفاتنة قصدت المكان للاحتماء من المطر، وقفت في مكان أستطيع أن أراها منه بشكل جيد، هبت ريح قوية فتطاير شعرها الأشقر الطويل

كاشفًا عن وجهها الملائكي، إنها في مواجهتي الآن، وهذا أكثر ما كنت أحتاج إليه، ثم وبشكل تلقائي أمسكت ريشتي وبدأت أرسمها. كم من الممكن أن يكون عمرها؟

أسئلة كانت تتوارد إلى ذهني وأنا أحرك ريشتي بخفة ورشاقة، فطالما رسمت الجميلات في المغرب قبل أن أهاجر إلى ألمانيا، اشتدت الريح في الخارج وفي حركتها لإعادة ترتيب شعرها التقت نظراتنا. كانت قريبة كفاية لكي تلاحظ الرسم، اتسعت شفتاها بابتسامة عريضة وغامضة واضطربت عيناها الزرقاوان، وسألتني:
-لماذا ترسمني؟

أجبت معتذرًا:
-إنها لعنة الفراغ والرسم، فأنا لا أفوت منظرًا جميلًا إلا ورسمته.

ابتسمت فابتسمت، كانت جميلة جدًا، شابة فرحة ومؤثرة بشكل طاغ، أضاء وجهها ابتسامة مشرقة، واسترسلت في الحديث:
-استغرب من شكواك من الفراغ وأنت وسط هذا الكم الهائل من الكتب، ربما لا تغريك القراءة!
-يجب أن تتعرفي على ظروفي حتى تحكمي.

لكنها قاطعتني قائلة:

-أنا أيضًا أشعر بفراغ قاتل في هذه المدينة، ولكن أشغل نفسي بتصميم وحياكة ملابسي.

تساءلت بدهشة:

-هل هذا المعطف من تصميمك؟ يبدو رائعًا.

قالت:

-نعم، ليس لدي الكثير من المال، لا أستطيع شراء الملابس التي أحبها.

تأملتها باهتمام أكبر وسألتها عن اسمها ..

-اسمي ليزا، وعمري سبعة عشر عامًا.

اتخذ وجهها فجأة مظهرًا جادًا، وغيرت نبرة صوتها:

-ليس لدي عمل، أعيش مع والدي وأختي، قبل بضع سنوات تعرض والداي إلى حادث سير خطير، ماتت على أثره أمي وأصيب والدي بجروح بليغة.

قلت:

-أرجو المعذرة يا آنسة ليزا، بدون شك لقد أحييت جرحًا لم يلتئم بعد، أنا آسف لسماع ذلك.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة، واسترسلت، كان يبدو أنه لا شيء يستطيع أن يوقف ليزا.

-كان أبي مهندسًا في الماضي، ولكن من الصعب عليه العثور على عمل الآن؛ بسبب إصابته يعيش الآن على تعويضات التأمين.

سكتت ليزا فجأة، كما انفجرت فجأة، وتجولت بنظراتها بين الصحف والمجلات والكتب التي تغطي الطاولات وسط المكتبة، ثم تساءلت بدلال:

-هل يمكنني الاطلاع على بعض المجلات؟

قلت:

-لا بأس.

وأتممت بدون سابق سؤال:

-أنا أتقاضى راتبًا جيدًا ولدي الكثير للقيام به.

اقتربت مني أكثر فأكثر تم همست في أذني:

-إنها مملة، أليس كذلك؟

قلت وأنا أنظر في حدقتي عينيها:

-جميع الوظائف مملة.

قالت:

-لا، ليست كل الوظائف.

نظرت إليّ ثم ابتسمت .. كنت محرجًا، لم أكن أعرف ماذا أقول، نظرت نحو النافذة ثم قلت - وكما لو إنني أريد إنهاء هذا الموقف:
-أعتقد أن المطر توقف.

ضحكت ليزا وبدأت بالابتعاد، عندما وصلت إلى الباب استدارت ولوحت بيديها مودعة، أردت أن أناديها، أن أخبرها أنها على حق؛ وظيفتي مملة وأنا أكره هذه المكتبة ولا أريد مهنة أمين المكتبة، أنا فنان أريد أن أرسم وألتقط صورًا .... لكنها ذهبت.

تسللت أشعة الشمس الدافئة إلى غرفتي، ضوء خافت كسر ظلامها المطبق وقطع أحلامي بالصورة التي لم تفارق خيالي، إنه يوم جديد وبداية جديدة، منحت الوقت الكافي لنفسي لأهتم بمظهري وهندامي وأكون في كامل أناقتي، ثم خرجت من المنزل مسرعًا إلى المكتبة، كنت أول مرة أستشعر كل هذا الحماس للوصول مبكرًا للعمل الذي حتى الأمس كنت أراه مملًا ولا يناسبني.

إنها الساعة العاشرة صباحًا، الجو مشمش وجميل اليوم، في العاشرة يتحول ضوء النهار الناصع إلى ضوء مبهر لا تستطيع العين تحمله، وتصبح الشمس هي ملكة هذا المشهد بشكل مطلق، أسدلت الستائر لأعطي المكتبة نوعًا من الحميمية والخصوصية، وكأنني على موعد غرامي مؤكد، أعدت ترتيب مظهري ربما ستأتي اليوم ...

مر الصباح ببطء شديد جدًا، عدد قليل فقط من الناس يأتون لتصفح الكتب والجرائد، وبعد الظهيرة زار المكتبة مجموعة من تلاميذ المدرسة، أحدثوا فوضى عارمة في المكان وأتلفوا بعض محتويات المكتبة، تذكرت نفسي في مثل عمرهم عندما جرّدني صاحب مكتبة في المغرب من حذائي؛ لأنني أسقطت كتابًا أرضًا، عند الساعة الخامسة أغلقت أبواب المكتبة، ووقفت على بابها الرئيسي أمسح الشارع بنظري من يمينه إلى يساره، بل أنظر أحيانًا إلى أعلى وكأنها ستأتي إليّ محلقة.

أنها الساعة السادسة وليزا لم تصل.

في اليوم التالي واليوم الذي يليه فعلت نفس الشيء، ولكن ليزا لم تظهر، كان غيابها شيئًا غريبًا، كل أفكاري كانت تدور حولها، أراها في كل قطعة أثاث حولي في المكان، في كل إطار، تسقط من كل كتاب آخذه بتلقائية من المكتبة ...

ما خطبك يا محمد؟!! ما كل هذه المشاعر المضطربة؟ وكيف أمكنها أن تستولي على أفكارك وتعشش في خيالك بكل هذا الثقل؟؟!! أعاد سحر الشقراء ليقلب أوراق الزمن؟؟؟!!!

وضعت رسمًا لها على حائط غرفة نومي، شيء منها على الأقل يشاطرني فضائي.

بعد أربعة أيام عادت ليزا إلى المكتبة، ضحكت عندما رأتني:
-أنت ما زلت هنا، ما زلت تقوم بهذه المهمة المملة.

أجبت:
-هذا ليس اختياري ولكن عليّ الآن على الأقل القيام بهذه المهمة.

فابتسمت ليزا، كم أحب هذه اللمعة المثيرة في عينيها، أضاء شعرها الأشقر الطويل بشرتها الذهبية، لقد كانت فاتنة في فستانها الأبيض القطني الذي يعري كتفيها، كانت في غاية الأناقة، إنها لمحة من الأنوثة الطاغية.

-ما هو حلمك يا ليزا؟
أدارت رأسها حتى لا أرى عينيها التي لمعت فجأة، حلمي أن أصبح عارضة أزياء مشهورة، ولكن أنا لست جميلة وقصيرة للغاية.
قلت:
-لا، إني متأكد أنك ستنجحين في تحقيق حلمك، فأنت تملكين كل مقومات عارضات الأزياء.

كانت تسمعني مرتعشة، فقد كان هناك لطف بالغ في صوتي.
-لا، لست كذلك، لقد عرضت نفسي على الكثير من دور الأزياء في ألمانيا، ولكن ولا واحدة قبلتني.

رفعت كتفيها غاضبة وأدارت وجهها نحو الرف الأمامي للمكتبة، حيث كانت تعرض المجلات النسائية، اختارت عددًا من مجلة "فوغ" التي كانت تعرض صورًا عديدة لعارضات أزياء جميلات، علمت أن ليزا كانت تتمنى في تلك اللحظة أن تكون واحدة منهن.

قالت وقد عادت للنظر إليّ:

-أنا آسفة.

ابتسمت وقلت:

-لماذا؟ لم تفعلي شيئًا.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة، وكأنها تعتذر:

-لقد أجبتك بغضب، لست سعيدة يا محمد، أريد أن أكون عارضة أزياء مشهورة، لكن لا أحد يساعدني.

تذكرت أنني أردت بدوري أن أحقق حلمي في الولوج إلى مدرسة برلين للفن، أردت أن أكون فنانًا، أردت الرسم والطلاء طوال اليوم، أردت الذهاب إلى الحفلات ليلًا، ولكنني كنت هنا في هذه المكتبة البئيسة.

دون أن أرفع بصري عنها غصت في مقعدي، إنني متأثر بها بشدة، ماذا بها مختلف عن الأخريات؟

هل كان ذلك بسبب إحساسه بالوحدة والغربة وعدم الاستقرار؟، هل يراها الآن أم يرى ذكريات طالما حركت مشاعره هناك في المغرب؟

-ليزا أعتقد أنه بإمكاني مساعدتك.

قالت ليزا بدهشة كبيرة:

-كيف؟

قلت بسرعة:

-يمكنني أن ألتقط لك صورًا في وضعيات مختلفة، يمكننا إرسالها إلى جميع مجلات الموضة في ألمانيا.

ظل هذا الجواب معلقًا في مساحة من الفراغ بيننا، أنتظرها لتقول شيئًا، نظرت إليّ باهتمام، في النهاية قالت:

-أعتقد أنها فكرة رائعة.

في نهاية الأسبوع التالي، خرجت وليزا معًا، أخذت الكاميرا وذهبنا إلى الحديقة العامة في وسط المدينة، كان الجو باردًا جدًا لكن الشمس كانت مشرقة زاهية، كنا نسير حول البحيرة حيث الزهور تكسو المكان بألوانها، تناولنا الغداء على الطاولة الضخمة المصنوعة من خشب الأكاجو والممتدة على طول الحديقة، ثم جلسنا بالقرب من شجرة بلوط كبيرة.

قلت:

-أنا سعيد جدًا يا ليزا.

قالت ليزا:

-أنا أيضًا.

وضعت يدها على يدي، ثم قالت محركة شفاهها الجميلة:

-سعدت بمقابلتك محمد.

تحدثنا كثيرًا، ثم التقطت لها بعض الصور، وهي ترتدي معطفها الشتوي الجديد، لمحتني أنظر إليها بإعجاب، قالت بابتسامة وقد حولت الفرحة وجنتيها إلى اللون الأحمر:

-حكت المعطف بنفسي، أردت أن أشتري زيًا جديدًا، لكنني لا أستطيع شراء الملابس التي أحبها.

قلت:

-إن المعطف يبدو رائعًا، هل يمكنني التقاط صورة لك؟

ضحكت ليزا:

-لست أعرف، أخبرتك قبلًا .. أنا لست جميلة.

أجبتها:

-أرجوك، لا تقولي هذا الكلام .. إنك جميلة جدًا.

-لا، أنا لست كذلك، أود أن أكون متفائلة ولكن؟؟؟!!!

ابتسمت لها وهمست ضاغطًا في لطف على يديها:
-إنك أجمل مما نتصورين.

همست في نفسي "جيد أنك لم تنتبهي إلى نظرات الرجال التي كانت تخترقك وتشعل غيرة قاتلة في قلبي".

-إني متأكد من إنك ستنجحين في تحقيق حلمك، عليك فقط أن تؤمني بإمكانياتك.

أدارت ليزا رأسها نحوي، رفعت عينيها، كانت نظرتها سهمًا أصاب قلبي، جميلة هي ليزا وفاتنة، تنقصها فقط الثقة في قدراتها.
الثقة بالنفس هي التي تمنح الإنسان القوة والطاقة ليواجه أحداث الحياة بمصاعبها وتحدياتها بعد اعتماده على الله، وكلما كان الإنسان راسخَ الثقة في إمكانياته وطاقاته، كلما ثبت أمام رياح الواقع، وكلما تيقن أنه أقوى من الحياة، وإذا اهتزت هذه الثقة سقط الإنسان وغرق في بقعة ماء.

في تلك الليلة، طورت الصور التي التقطتها لها في الحديقة، ثم قمت بعمل عشر نسخ من أفضل صورها، أرسلتهم إلى عشر مجلات أزياء مختلفة في ألمانيا، ويوم الاثنين التقيت ليزا في المكتبة، وأخبرتها أنني أرسلت الصور إلى المجلات.

العاشر من نوفمبر، كنت على أمل أن يطبعوها قبل عيد ميلادها، كنا نتقابل كل يوم، وكانت تأتي إلى المكتبة في الصباح وتقرأ المجلات، وفي وقت الظهيرة نقتسم غداءنا، أخبرتني ليزا أشياء كثيرة عنها خاصة طبيعة المشاكل التي تواجهها مع والدها.

-يريدني أن أتزوج أبشع رجل في العالم.

-لماذا؟

-لأنه شخص ثري، وأبي يريد مني أن أتزوج من رجل لديه المال، لا يريدني أن أظل فقيرة طوال حياتي، لكنني سأتزوج فقط من أحب، وأنا أكره بوندو .. يا له من اسم سخيف!، لديه مخبز وهو سمين جدًا، أعتقد أنه يأكل كل الكعك الذي يصنعه.

ضحكت بهستيرية وقلت:

-لا تقلقي، قريبًا ستكونين موديلًا مشهورًا وستمتلكين منزلًا وسيارة خاصة بك، لن تضطري إلى الزواج من المدعو بوندو.

بعد أسبوع، تم إشعاري برفض الصور الفوتوغرافية التي التقطتها من مجلة تسمى الموضة.

-لا تقلقي يا ليزا، لقد أرسلت مجموعات من الصور إلى تسع مجلات أخرى.

وفي اليوم التالي رفضت ثلاث مجلات أخرى الصور، كانت ليزا مستاءة جدًا.
-لا أحد يريدني، فهمت؟! .. لن أكون موديلًا أبدًا.

ورغم شعوري أنا أيضًا بالإحباط حاولت مواساتها.
-لا، هذا ليس صحيحًا، هناك مجلة واحدة لم ترد بعد، يطلق عليها "الحلم" ربما سيستخدم "دريم" صورنا.
بدأت ليزا بالبكاء ثم قالت:
-لا أهتم بالملابس، يمكن لأي شخص أن يصنع الملابس، أريد أن أكون عارضة أزياء ولا أحد يريدني.

لم أعرف ماذا أقول، أرادت أن تنسى أن تصبح عارضة أزياء، لكنها مستاءة وحزينة جدًا.
-لا تبكي يا ليزا، سنجد لك وكيلًا.
-أين يمكنني العثور على وكيل؟
-أعتقد أنهم يعلنون في المجلات.

قرأت الإعلانات في جميع مجلات الموضة في المكتبة، ووجدت أرقام هواتف بعض العملاء، ثم اتصلت بها، لكن جميع الوكلاء يريدون عارضات عملوا في مجلات الموضة من قبل، عثرت ليزا على

إعلان في أخبار قناة "زدف" الألمانية، قيل إن الموديلات المطلوبة ليس شرطًا أن تكون لها تجربة، ظهر إعلان في التلفاز مكتوب عليه "هاتف السيد بينتر: "٠٠٤٩٧٤٣٥٢٧١١١١".

قالت ليزا:

-انظر! لنهاتف هذا الرقم الآن.

كنت قلقًا جدًا، لم يعجبني الإعلان لكن لم أكن أريد أن أزعج ليزا لذلك لم أقل شيئًا.

التقيت أنا وليزا بالسيد بينتر في مقهى "Cafe Extrablatt Lünen" لم يلقِ علينا حتى التحية، قال بسرعة وكأن عصابة تركض وراءه:

-أنا آسف، لأنه لا يمكننا الاجتماع في غرفة مكتبي، يتم تنظيفها وتزيينها في الوقت الحالي، لكن الأجواء هنا لطيفة ونظيفة والطعام مثالي.

نظرت حولي لكن لا يبدو لي أن هذا المقهى نظيف كما يقول، تفوح منه رائحة السجائر وزيت الطهي والأطباق متسخة على العديد من الطاولات.

قالت ليزا:

-نحن لا نمانع، أليس كذلك يا محمد؟

أجبتها ببطء:

-لا أعتقد ذلك.

كان السيد بينتر في الأربعين تقريبًا، كان لديه رأس أصلع وشارب ملتوي ينساب على شفتيه، وكانت بذلته مصنوعة من مادة رقيقة ولامعة، كان يرتدي الكثير من المجوهرات الذهبية.

قال:

-أعرف كل من يعمل في مجال الأزياء، وأعدك بأن تصبحي عارضة أزياء رائعة.

تحدث السيد بينتر عن الأموال التي ستكسبها ليزا، تحدث بسرعة محركًا يديه بصورة مزعجة.

قال:

-في غضون عامين، سيكون لديك منزل فخم وسيارة رائعة، وربما حمام سباحة أيضًا.

كنت أستمع إليه في ذهول، ومن مذياع المقهى الكبير انبعثت أغنية "عامل التشغيل النصاب" رجل قام بخداع الناس بكلمات ذكية! كنت أعتقد أن بينتر لربما يكون مثله، لا أعلم ما هذا الإحساس الذي ينتابني!، لم أرتح لهذا الرجل إطلاقًا، لكن ليزا كانت سعيدة؛ أخيرًا أخبرها أحدهم أنها ستكون عارضة أزياء.

سألته:

-ماذا عليّ أن أفعل؟

بدا السيد بينتر جادًا للغاية.

-يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لكي تصبحي عارضة محترفة، وعليك دفع رسوم لتدريبك حتى تكملي الثامنة عشر من عمرك، كم تبقى لكِ؟

أجابت ليزا:

-ثلاثة أشهر.

أعطته ليزا ثلاثة مائة يورو كمقدم، نظر إليّ باحتقار شديد:

-عندما تبدأ العمل معي ستكسب الكثير من المال ستكون وظيفتك الأولى هي تحضير القهوة وتنظيف المكتب.

كنت قلقًا جدًا، لكن ليزا سعيدة جدًا وتتسرع في كلامها وقراراتها قالت:

-هذا جيد، يمكنني أن أدفع لك ثلاثة مائة يورو أخرى.

أخرج السيد بينتر بعض الأوراق من محفظته البنية، يبدو أنها فرنسية الصنع.

-ليزا، هنا عقد لتوقيعه، وأنت يا محمد ستكون شاهدًا يمكنك توقيع العقد أيضًا، هذا يعني أنها ستعمل معي.

أرادت ليزا توقيع العقد على الفور، لكنني أوقفتها، أريد أن أقرأ هذا العقد أولًا، كانت الكتابة بحروف صغيرة جدًا والكلمات كانت صعبة قلت له:

-لا أفهم هذا العقد، أود أن آخذه إلى المنزل وأقرأه بعناية، سنلتقي بك إذن غدًا.

قال السيد بينتر:

-هناك الكثير من الفتيات اللواتي يرغبن في أن يصبحن عارضات أزياء، أنا مشغول جدًا، لا أستطيع الانتظار .. رجاءً وقعوا العقد.

لم أكن موافقًا على هذه الخطوة المتسرعة، لكن ليزا تدخلت:

-كل ما أريده الآن هو أن أصبح عارضة أزياء، وموديلًا ناجحًا للمجلات الشهيرة، هذه فرصتي الكبيرة.

لم أكن سعيدًا، لم أرغب في التوقيع على شيء لم أفهمه.

-سيد بينتر، لكنني أريد التحدث إلى ليزا وحدها، ليزا أريد أن أكلمك لحظة.

تبعتني لخارج المقهى كانت غاضبة جدًا.

-لماذا لا توقع على العقد؟

-لأنني لا أثق بهذا السيد بينتر، فأنا لا أصدق ما يقوله.

ثم اضفت:

-لا أعتقد أنه يمكنه مساعدتك لتصبحي عارضة.

-لا تريدني أن أكون عارضة أزياء؟

ثم صاحت قائلة:

-لا تريدني أن أكون نابحة؟

شعرت بغضب وتوتر كبيرين، بدا ذلك واضحًا على وجهي وملامحي.

-حسنًا يا ليزا، سوف أفعل ما تريدينه، ولكن أعتقد أنها حماقة وتسرع لا تبرير منطقي له.

عدنا إلى المقهى مرة أخرى، وقعت ليزا العقد ووقعته أيضًا، قال لي السيد بينتر:

-اكتب عنوانك من فضلك.

لم أرغب في إعطائه عنواني، لم أثق به، فكتبت له عنوان المكتبة، وسلم ليزا بطاقة مدون عليها رقم هاتف وعنوان.

-يجب أن تذهبوا إلى هذا العنوان صباح الغد، أحضري معك المبلغ المتبقي، سيخبرك صديق لي عن عملك، أنت الآن يا ليزا تعملين عندي، لا أحد آخر يمكنه التقاط أية صور لك.

صرخت بغضب وبصوت عالٍ أثار انتباه كل الموجودين في المقهى.

-ماذا؟ أنا مصور ليزا.

هز السيد بينتر رأسه:

-لا يا محمد، أنت لست مصور ليزا بعد الآن.

نظر إلى ساعته الذهبية:

-يجب أن أذهب، أنا مشغول جدًا، وداعًا.

شاهدت أنا وليزا السيد بينتر وهو يغادر المقهى، لم تكن تملك القوة للنظر في عيني.

-أنت غبية، تفكرين فقط في أن تصبحي موديلًا لمجلة وعارضة أزياء، ألا تفهمي؟ بينتر لص!

-ماذا يا محمد! أتريد مني أن أفوت هذه الفرصة لأحقق حلمي؟ تريدني أن أتزوج بوندو السمين؟

-تزوجي من تريدين، لكنني لا أريد أن أتحدث إليك مرة أخرى.

تركتها باكية وانصرفت.

كما هو محدد، ذهبنا أنا وليزا إلى العنوان الذي منحنا إياه ذلك المتكبر بينتر، كان الطريق ممهدًا، وكانت ليزا ترفل في فستانها الوردي الجميل مفعمة بالحيوية والنشاط، وجدنا رجلًا في انتظارنا أعطيناه النقود، انحنى على ليزا وتأملها باهتمام كبير.

-ممم .. على الرغم من حداثة سنك فإن جمالك مبهر حقًا!

يالها من وقاحة ويالها من غيرة تشتعل في قلبي ونحن ما زلنا في بداية الطريق، طلب من ليزا أن ترافقه إلى غرفة التصوير في تجاهل تام لوجودي معها، نظرت إلي ليزا وقد توردت تمامًا وتمتمت:

-سأذهب يا محمد. قالتها مشيرة إلى باب الغرفة.

عادت ليزا لتستعيد حقيبتها التي تركتها معي:
-بعد إذنك محمد، سأصلح مكياجي.
اغتنمت الفرصة وسألتها عن نوع الثياب التي ستعرضها، ارتبكت وأجابتني بأنها ثياب داخلية، ثم انصرفت في عجالة قبل أن أعلق، ثياب داخلية يا محمد! ثقافة أخرى وعالم آخر لن يقبله عقلك المشرقي.

بجانبي يجلس رجل يرافق زوجته، وهي أيضًا ستدخل جلسة التصوير لعرض حمالات صدر أمريكية، يا لبرودة هؤلاء القوم! كيف لا يغارون على زوجاتهم، هل هي شجاعة حقًا؟ لقد قرأت ذلك يومًا عند فاطمة المرنيسي في كتابها "شهرزاد ترحل إلى الغرب": "علينا أن نتصور إمكانية كون الرجال الغربيين أكثر شجاعة -فيما يخص النساء- من الرجال الشرقيين، أنهم لا يخشون عواقب الغيرة عليهم".
لكن تفكيري لا يتقبل هذا المنطق على آية حال، ولا تفكير أي عربي غيري ...

ليزا لم تأتِ للمكتبة منذ أيام عديدة، لا أعلم ما سر هذا التحول، على الأرجح ستكون مشغولة بالتصوير عند السيد بينتر.
مر أسبوع، صدرت المجلة التي تعرض صور ليزا، لم أستطع مقاومة بشاعة المنظر، إنها ترتدي ثيابًا شفافة تكشف كل مفاتنها، وفي

وضعيات فاضحة، هل هذا ثمن الشهرة وتحقيق الأحلام يا ليزا؟ لقد كانت شبه عارية.
أيقنت حقًا أن المرأة العربية لا تقدر بثمن، كذب من قال إن الغرب تقدميون، إنهم فقط يضربون مجموعة من الأخلاقيات التي تعتبر بالنسبة لنا نحن توابث.

اتصلت مرات عديدة بها، لكنها لم تجب على كل مكالماتي، حاولت تعقبها، رأيتها تدخل إلى إحدى الحانات مع المدعو بينتر، أردت أن أدخل في أثرهما لكن حارس الأمن منعني، عن أي ديمقراطية وحرية نتحدث في المغرب؟ نفحته خمسين يورو ودخلت، أيقنت أنه لا فرق بيننا وبينهم، هناك فرق واحد، أن حارس الحانة في المغرب يمكنه أن يقبل علبة سجائر بينما هنا لا يرضى بأقل من القطعة النقدية التي أعطيته إياها.

رأيتها كانت في وضع حميمي مع المتكبر، كانا يتبادلان القبل ويقارعان الخمر.
وأنا يا ليزا!!، ألم أكن أنا من مهّد لكِ الطريق وعلّمك كيف نثقين بنفسك؟، ألست أنا من منحك كل تفكيره ووقته وتشجيعه؟؟؟

كنت أقف على مسافة قصيرة جدًا منهما، ارتشفت ليزا جرعة شراب وأطلقت ضحكة خليعة ثم استدارت فجأة نحوي، بحظت

عيناها وهي تنظر إليّ في دهشة، لقد تأثرت بعمق ولم تحاول حتى أن تخفي اضطرابها:

-ماذا تفعل هنا يا محمد؟؟؟!!!

قلت مستفيدًا من دهشتها:

-حقًا ماذا أفعل هنا؟، فهذا المكان لا يناسبني بل يناسب الـ..

لم أكمل الجملة، شتمتها وبصقت في وجه رفيقها، ثم خرجت من الحانة أسلك أزقة فارغة إلا من قط يضاجع قطة، لم أشأ أن أعكر مزاجهما، كنت أريد فقط أن أخبره أن فتياتهم لا يؤمنَّ بالحب، فقط يسعين وراء المصلحة والمال، كنت أود أن أنصحه بأن لا يثق بها، فسيندم يومًا لا محالة ...

تعقّبني مجموعة من رجال بينتر، انهالوا عليّ بالضرب حتى فقدت الوعي. عندما استيقظت وجدتني في غرفة ناصعة البياض، لم أكن قادرًا على تحريك قدمي، بجانب السرير كانت تجلس عجوز تركية سمعتها بصعوبة تقول لابنها المصاب بالحروق بألمانية سليمة:

"Satan in Gegenwart von Frauen"

"الشيطان في حضرة النساء"

وطبيب يقول للعم ماركو إنني سأتعرض لشلل كلي وأنهم غير قادرين على مساعدتي ...

جزاء القمار

ليس من الصعب أن تقامر، بل أن تتوقف عن المقامرة.
مثَل بولوني

وصل محمد ابن قرية تيز تنفاتين إلى المدينة، يجر خلفه أحلامه، والكثير من دعوات والديه، فقد كان بالنسبة لهما هو الأمل والخلاص الذي سيخرجهما من حالة الفقر والعوز التي يعيشانها.

كان كل متاعه حقيبة والده القديمة، وضعت بها أمه قميصين وسروالين، بعد أن غسلتهما وكوتهما، ونفحه والده مبلغًا صغيرًا من المال كان هو كل عائدات اليوم من بيع البيض والدواجن.

التحق الشاب القروي الخلوق محمد بالجامعة، إنه في بداية تحقيق الحلم، حلمه الوحيد كان النجاح في دراسته ووسيلته لتحقيق أحلامه لم تكن تتعدى منحة الجامعة، وبعض المبالغ الصغيرة التي كان يجنيها من أعمال مؤقتة كان يقوم بها خارج أوقات الدراسة، ليتمكن من دفع نصيبه من إيجار الغرفة التي يكتريها مع زملائه.

كان شابًا ذكيًا حكيمًا ومجتهدًا، وكان محبوبًا بين زملائه لطيبته، وحسن سلوكه وابتسامته المشرقة التي لا تفارق شفتيه، بالرغم من صعوبة ظروفه كان راضيًا وقنوعًا.

أقبل محمد على دراسته، وأولاها الاهتمام الأول في حياته، إلى أن تعرّف على عمر الشاب الوسيم المترف، ربطت بينهما علاقة صداقة تطورت إلى أن أصبحا لا يفارقا بعضهما بالرغم من شساعة الفروق الاجتماعية بين الصديقين، فعمر لم يشعر محمدًا يومًا بفقره ولا بعوزه بل كان يصاحبه إلى أفخر المطاعم ويدفع بسخاء، هذه الأماكن التي ما كان محمد يجرؤ على الحلم بارتيادها، خرجا معًا وسافرا معًا وزارا معًا الشواطئ والمنتجعات التي هي حكر على الأغنياء والميسورين، ويبدو أن محمدًا انبهر بحياة صديقه عمر، فكان يرافقه كظله.

دخلا يومًا إلى مطعم فخم يعرض مأكولات بحرية ذات جودة عالية، اختار عمر له ولصديقه وجبة من أفخر أنواع السمك والسلطات، وضعتها النادلة بعناية على المائدة، فتساءل محمد مشدوهًا:

-!!!!!!!!كل هذا لي؟ ليس معي ثمن هذا.

ضحك عمر ضحكة هستيرية ثم أردف قائلًا:

-"ما حدك معايا كول واشرب على حسابي".

أعجب حقًا محمد بكرم عمر طيبوبته فتسرب إلى عمق فؤاده، ولأن الفيروس ينخر فريسته تدريجيًا ويجعلها عرضة لمخاطر أكثر يمكن أن نلقبها بالسم اللذيذ، كذلك هو عمر.

ذات يوم اتصل بمحمد:

-أهلا محمد.

-كيف حالك صديقي العزيز؟

-بخير وأنت؟

-في أحسن حال.

-أين أنت؟

-في الجامعة لدي حصتين.

-نريد أن نذهب إلى مكان جميل .. هل ستأتي؟

-نعم بالطبع، أنا قادم في الحال.

-أنتظرك ...

فوت محمد حصتيّ الجامعة، ثم ذهب لملاقاة صديقه الذي ينتظره، لم يكن محمد يبيت أيّة نية سيئة اتجاه صديقه عمر، فقد كان مسلوب الإرادة تمامًا أمامه، ثم لأنه في الأصل شاب طيب، ولا يجيد فن الخداع ولا التلاعب بالآخرين.

كان متمسكًا بهذه الصداقة التي عوضته الحرمان والفقر وحققت له سعادة لم يكن يعلم أنها لحظية ولم يكن يعلم أن هذا التعلق بصديقه سيرميه في متاهة من الحسرة والضياع.

التقى محمد بعمر ثم رافقه على متن دراجته النارية الكبيرة التي تعود أن يزهو بها على الفتيات أمام أبواب الثانويات والجامعة، خاصةً وأن هذا النوع من الدراجات لا يمتلكه إلا أبناء الطبقة الميسورة فهي إذن رمز للثراء، وحقًا تعتبر تنويمًا مغناطيسيًا للفتيات، اللواتي تغرهن المظاهر وينسقن وراء ما هو مادي، فيصبحن بالتالي صيدًا سهلًا، لعمر وأشباهه.

رافق عمر محمدًا إلى إحدى المقاهي في وسط المدينة، كانت مقهى للقمار "التيرسي" حيث يكون الرهان على الخيول المشاركة، كان المقهى ممتلئ عن آخره، وحتى خارجه كان هناك حشد غفير من الناس، حتى ظن عمر أنه مكان تقدم فيه المؤن والمساعدات، غير أنه لم يكن في الواقع إلا مكان لتغيير الأقدار، ربما تدخله فقيرًا وتخرج منه غنيًا، وهذا احتمال ضئيل، أو ربما تدخله غنيًا وتخرج منه مفلسًا، وهذا الاحتمال الأقرب.

تذكرت "السي مبارك" الرجل المسن، كان صاحب شركة للكرتون، يجني من ورائها الأموال الطائلة، وكانت تظهر عليه وعلى أولاده علامات الثراء، يلبسون الغالي من الألبسة، ويشتري لهم أحسن الهدايا، كانت زوجته منتقبة، تعتني بزوجها وأبنائها العناية الفائقة، وتحترم زوجها أشد الاحترام، فهو الوالد والزوج والأخ والمعيل، لكن شاءت الأقدار أن يغره الشيطان وينساق وراء هذه اللعبة القذرة حتى أصبح مدمنًا عليها، فخسر بسببها شركته وجميع ممتلكاته حتى البيت الذي كان يأويه هو وزوجته وأبناءَه، آسف فمصطلح زوجته كان من الماضي، أما الآن فأصبحت طليقته لأن ذلك المعيل تحول إلى علة تستطيع بيع كل ما تجد، وهذا هو حال القمار.

جلس محمد وعمر إلى طاولة رصت عليها أوراق "البروغرام"، وهي أوراق تعطي جميع التفاصيل عن الخيل التي ستخوض غمار السباق، تفاجأ محمد بالمنظر، فهمهم قائلًا:
-تملك الخيل معلومات دقيقة ربما لا أمتلكها أنا في بطاقتي الوطنية.

التقط أحد المقمارين بجانبه كلامه، فرد عليه قائلًا:
-ثمن الخيل الواحد يمكنه أن يشتري مدينتكم كلها.
حمل عمر البروغرام في يده يتأمله بتركيز تام، وكأنه يريد أن ينقب عن كنز مفقود، التفت إلى محمد ثم طلب منه أن يختار رقمين أو

ثلاثة من واحد إلى ستة عشر، اختار محمد الأرقام ثم رفع صوته ضاحكًا وقال:

- ٦ ٠٤ ٠١١

أعطاه عمر مبلغًا من النقود ليشتري التذكرة التي تحمل تلك الأرقام.

كان هناك حشد من البشر يتصارعون فيما بينهم من أجل شراء هذه التذاكر، فتساءل محمد من جديد:

-هل يحتاج الأمر إلى كل هذا الصراخ والصراعات؟

اقترب محمد من الشباك واشترى التذكرة، وما إن أعلنت النتائج حتى أخبره صديقه عمر أنه قد حصل على الأرقام الصحيحة:

-لقد فزنا يا محمد.

-"حلف".

-والله.

-كم ربحنا من المال؟

ظن محمد أنه ربما يكون مبلغًا قليلًا لن يتجاوز المائة درهم، وما إن أعلنت النتائج الرسمية حتى صاح عمر بمحمد:

-هيا بنا لنذهب!

-إلى أين؟

-قلت هيا.

تبعه محمد وهو في حيرة من أمره، ركبا الدراجة النارية وذهبا إلى أحد المطاعم، فابتسم عمر ولم يستطع إخفاء فرحته الكبيرة.
-لقد فزنا يا محمد بقسيمة شراء تقدر بستين ألف درهم.
لم يتملك محمد نفسه، بل قام وعانقه بحرارة وصاح مثيرًا انتباه الكل إليه.
-"احلف بالرب".

ذهبا يوم الإثنين إلى الوكالة، ثم حصلا على النقود اقتسماها فيما بينهما كانا فرحين، ولكن فرحة محمد لا توصف، لأول مرة في حياته يمسك مثل هذا المبلغ بين يديه، كان يشعر أنه في حلم.

بعد أيام يتفاجأ محمد بأن عمر سيرافق أخته إلى أوروبا، لأنها تقيم هناك، لم يكن الخبر سهلًا على محمد، لأن عمر كان الرفيق والصديق ومصدر سعادته وأمنة.
ودّعا بعضهما البعض، كانت لحظة قاسية على محمد، أحس بدمعة حارة تنسدل على جبينه، وتبلل شعرات لحيته الخفيفة.

سافر محمد إلى قريته الواقعة قرب مدينة تافراوت، اشترى من المال المتوفر معه هدايا ومواد غذائية لعائلته، وما إن وصل المنزل حتى انهالت عليه أمه بالأحضان والقبلات، لأنه لا يزور في العادة عائلته

إلا مرة كل ثلاثة أشهر، يقضي معها أسبوعًا ويعود إلى المدينة، نفح أمه مبلغًا من المال لتتدبر أمور المنزل، فهو كما سلف الذكر أمل أمه وأبيه الذي يبيع البيض في الأسواق الأسبوعية.

لم يطل مكوث محمد ببيت أسرته، فقد أخبر والدته بأنه عازم على العودة في صباح الغد إلى الجامعة الشيء الذي أثار استغرابها، لكن البدوية الطيبة لم تملك إلا أن تقول له:
-"سر الله يرضى عليك يا ولدي".

عاد محمد إلى المدينة، وبدأ في التمرد على حصصه الجامعية، يذهب من تلقاء نفسه إلى مقاهي القمار التي قال عنها سي مبارك: "تعطيك وتغريك في الأول، ثم تصد عنك وتطرحك فريسة للإدمان، وتتسبب في إفلاسك وضياع حياتك، بل وتسلب منك حتى ذلك الرجل النقي والتقي بداخلك".

هكذا أصبح محمد مدمنًا، سلك طريقًا نحو الندم واستحال رجوعه منها، قام بتبذير كل تلك الأموال التي كان يملكها، بل حتى المنحة الجامعية التي كانت معيله في دراسته راهن بها في لعبة قمار أخرى، والعمل الذي كان يوفر منه ما يساعده في تدبير حاله طُرد منه لأنه مد يده على فلوس مشغلِه بعد أن سدت في وجهه كل الأبواب.

ضاع مستقبل محمد وبضياعه ضاعت حياته ووئِدت أحلامه وأحلام والديه، لأنه سلك طريق الحرام، فلا تغرك أموال الحرام رغم كثرتها .. فالحلال كنز مهما كان قليلًا، فكم من اغتنى بالقمار فضاع ماله وحياته، وكم من فقير كان غناه هو التوكل على الله ...

جرعة من الواقع

ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب.
أبو بكر الصديق

حدثني ذات يوم متشرد قائلًا:

-عندما يسافر الوقت إلى تباشير ظلمة الليل وينام الجميع، تحتفل السماء بألحان الصمت والسكينة، وتزدان بضوء القمر وروعة النجوم. القليلون من يستمتعون بتلك الجولة الطويلة في سماء الليل وتأمل جمالها، أولئك الذين يحتضنون أديم الأرض، ويتخذونها رداءً ويلتحفون السماء، أولئك الذين اكتووا بجمر الأيام وجور المجتمع وقسوته على طبقة، ورحمته بطبقات أخرى، هم أيضًا لهم القدرة على وصف الحياة وجمالها، لكن الزمن كان قد قصم ظهورهم وقتل داخلهم أي إحساس بالجمال، فصار مبلغ همهم لقمة عيش يسدون بها رمقهم ومكان يأويهم البرد القارس وقسوة ليالي الشتاء الطويلة، وهيهات فلا مكان يحفظ كرامتهم، وكأن هؤلاء خلقوا خارج الزمن والمكان، احتضنتهم أرض الشوارع والزوايا والأركان بعد أن لفظهم دفء الحياة، وقسوة قلوب البشر..

قررت أن أقطع عليه الطريق، متابعًا بعيني طول الشارع وفراغه:
-إنهم يتحملون بعض المسؤولية فيما آلوا إليه ..

قال ملوّحًا بيديه في الفراغ:
-لا يمكنكم أن تحسوا بما نحس به، لأن مالك الشيء لا يعطيه وحتى إن تعودنا على قول "فاقد الشيء لا يعطيه" لكن الحياة تثبت العكس، لأن الذي يمكن أن يحس بالآخر هو الذي عاش نفس تجاربه، لذلك لا تبحث عن الدفء عند الذي يملكه، فالإنسان أناني بطبعه، فلغير نفسه لن يسعى خيرًا، والحياة فاصل وسيمر لا محالة، مجرد فرصة أتيحت لنا لننظف بها أنفسنا فنجعلها صافية نقية، لا لكي ندوس كرامة من هم أقل منا شأنًا أو نخشى أن يشاركوننا النعمة، فالتساوي هو تساوي القلوب والعقول، لا المال والمادة التي لو كان المجتمع عادلًا لتشاركها كل أفراده ..

نظر في عيني نظرة تحمل ألف معنى، ولوّح بيديه وغادر، ابتسامته المنكسرة القادمة من مكان دافئ في صدره ظلت محفورة في ذهني إلى الآن.

سار وسرت، دفعت خطوات قدمي بقوة إلى أرض الشارع، أتوشح الصمت، هناك كان كائن آخر لفظته الحياة، يفترش أرض الشارع ويتسربل بأشياء لا لون لها ولا شكل يوحدها، باغتتني دمعة نافرة

تنهمر على خدي، تذكرت صديقي الحكيم وهو يداعب لحيته الرمادية ويقول:

-عقولنا تعفنت وأفكارنا تنجست، وقلوبنا اسودت وتغلفت، ولبست جلباب الغل والكراهية، نهشنا جسد الأمين وسلبنا لب العفيف، ورقصنا وشربنا تحت انتصارنا على الضعيف، اكتحلت عيوننا بإثم الغدر والخيانة، فصرنا نرى الصالح طالحًا والأمين خائنًا، والناصح حاقدًا، آذاننا أصابها الوهن فلم تسمع إلا السباب والشتم، تمنطقنا بحزام التملق، وترصعنا بقلادة التزلف، وتوشحنا بوشاح النذالة.

أيقنت أن كلماته كلها حملت من الواقع ما لا يمكن أن يخفى عن الذي تتلمذ في مدرسة الحياة بحلوها ومرها، كان كلامه حقًا كافيًا مقنعًا كوننا نعيش زمن الغدر والخيانة.

رشف رشفة من قهوته المفضلة، ثم أردف قائلًا:

-مجتمعنا يا صديقي جعلنا ندوس بأقدامنا شرف الفقير وهتكنا بلساننا عرض العفيف، لثمنا يد المتغطرس ونفخنا خشم الغني ولعقنا حذاء المتعجرف، ارتدينا قناع العفاف وعباءة الراهب، ومظهرنا مظهر ناسك وأفعالنا في الغيب يستحي الشيطان من فعلها، فأخبرني يا صديقي، كيف لنا أن ننتصر؟!

كلماته كانت عميقة تخاطب الإحساس، وتعرّي واقع إنسان أغرته المادة، وصارت كل الطرق المؤدية إليها مقدسة.
تدفقت خطواتي إلى أرض الشارع الكبير، كانت أصوات الطبول تنبعث من كل مكان، علمت أنها مباراة في كرة القدم ربما تجمع الغريمين الوداد والرجاء، يصرخ المشاهدون بأصوات لاهثة حارة، لم يكن هذا المشهد يعنيني، فقد تعودت على هذه المناظر، على الحماس والهتافات والأغاني وإبداع شعار "الألتراس" الذي ينتمي إليه جمهور كل فريق، لكن في أغلب الأحيان يتحول كل هذا إلى سب وقذف وشتم تنتج عنه فوضى عارمة، تتسبب في كسر زجاج المحلات التجارية والسيارات المركونة على جنبات الطريق، وهذا أكبر دليل على أن أفكارنا وأخلاقنا لم تنسجم حتى مع الفكر الرياضي، لكننا في أغلب الأحيان نلقي باللوم على ذلك المسؤول المسكين الذي فاز في الانتخابات بجميع أنواع المكر والخداع، ذلك المسكين الذي قدم مجموعة من الوعود على أوراق مزركشة ببنود لم تطبق منها إلا التي تزيد من غنى الغني وتعمِّق بؤس الفقير.

توجهت مباشرة إلى المقهى الموجود على ناصية الشارع، طلبت قهوة قدمها لي نادل بدون اهتمام، بدا لي أكثر قتامة بزيّه الأسود الذي يشبه الليل، غمست شفتي في السائل الساخن، وبقيت لفترة طويلة ثابتًا في مكاني قبل أن أرتشف جرعتي الثانية، ألقيت نظرة حولي

وأنا أضع الكوب على الطاولة، كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، والمقاهي حولي تغلق أبوابها، وقف النادل بجانبي وكأنه يقول لي "عليك أن تغادر المكان"، فحملت هاتفي وبعض حبات الفول الطازج التي اشتريتها من البائع المتجول الذي طال انتظاري أمامه وهو منشغل عني بالتحديق بمؤخرة امرأة كانت تعبر الطريق، ضحكت في سري وأنا أردد: "هذه على الأقل يتساوى فيها كل الرجال...".

تذكرت المتشرد عندما قال لي:

-مشكلتنا أننا نخشى أن نتحدث في أمور هي من رحم واقعنا المعاش ونتذرَّع بأنها تخدش الحياء "حشومة" هذه العبارة التي جعلت الحقيقة الظاهرة تطمس وتحول إلى فكر لا يقبل المناقشة، والحقيقة أن أغلب الرجال أو الذكور في عالمنا العربي يأخذ الجنس حيزًا كبيرًا جدًا من تفكيرهم، وقيمة المرأة تقاس بما لها من مؤهلات جسدية أكثر من أي ميزة أخرى، بل ومجتمعاتنا التي تتبجح بالأخلاق تستورد المهيّجات الجنسية بمختلف أنواعها، وتغدق على ذلك أموالًا طائلة، ولن أغوص في الموضوع أكثر، فهي ربما تكون فرصة لك لتبحث في هذه الأمور العلمية، فكما يقال: "لا حياء في العلم"، يحلو لك أيضا أن تبحث عن هذه الشركات التي تستغل

سذاجة الكائن العربي، وتجعله يتأثر بأيدلوجيتها التي أعتبرها احتيالًا على عقل المستهلك.
سأكتفي عند هذا الحد، ولن أكمل بقية كلامي، لأنني أخشى أن يدرج اسمي في قائمة المخلين بالآداب الذين ينفرهم المجتمع كما نفرني وسلب مني كل ما أملك من منزل ومال وسيارة، وحينما جعلت من الشارع بيتي لقبت بالمختل والمتشرد.

انظر يا بني!! نعم انظر إلى ذلك الذكر هناك على الرصيف، صاحب البنية الطويلة والأكتاف العريضة، انظر كيف يضرب تلك الفتاة، ربما هي زوجته، إن الرجولة لا تعني الصرامة والقسوة ولا البنية العضلية .... لكن لا تنتظر مني أن أحدثك عن الرجولة، لأنك ستلمسها في تعامل الرجال وستفتقدها في مواقف أخرى، فالرجولة مواقف ...".

كلماته تغلغلت في أعماقي، كنت ما أزال أجوب هذه الشوارع الخاوية إلا من مجموعة من الكلاب، يقتاتون على عربات النفايات المركونة على جنبات الطريق، مستغلين ندرة المارة من الإنس لأن حتى هذه الحيوانات الأليفة اعتادت الصوم لأوقات متأخرة من الليل حيث تنعدم الحركة وتقل الضوضاء.

ولا تسأل عن مكان الرفق في قلوبنا، لأننا لم نرفق ولم نحسن حتى ببني جلدتنا، فكيف نحسن لغيرهم من الحيوانات؟!!

ما أن اقتربت منهم حتى فروا مني، الحيوانات تهرب منك حتى عندما تقدم لها الطعام لأنها عكس الإنسان، تختار الحرية على الخبز. لقد استعصى عليّ تحديد مَن الحيوان بيننا، لأن تعاريف الفلسفة للإنسان كما قرأت في كتاب أرسطو انطلقت من مقارنته بالحيوان، فإذا كان سلوك الحيوان تحدده الغرائز وردود الأفعال، فإن سلوك الإنسان يحدده الوعي والإرادة، لكن حينما ترى خوف هذه الحيوانات من الكائن البشري، فإنك تعيد التفكير في مقاربة أخرى أو إعادة تصحيح المقاربة السائدة في الفكر الفلسفي التي اعتمدت على أن الحيوان تحدده الغرائز وردود الأفعال العنيفة، وأن نضيّق التفكير ونقول أن ردة فعله يكسوها "الخوف" لأن شراسة الإنسان، لا يمكن أن يبلغها الحيوان.

"سأعود الآن إلى بيتي"، هكذا رددت في نفسي وأنا أسلك الشارع الرئيسي مرورًا بوحدات سكنية يقيم بها موظفو الأمن والبلدية، فقد تأخر الوقت، والدروب والمسالك الضيقة في مثل هذه الساعة لا يؤمن شرها - أو بالأحرى شر الكائنات التي قد تصادفك فيها، في رأس الشارع وبالقرب من منزل في طور البناء شاهدت مجموعة من

الصبية الصغار، فتساءلت مستغربًا ما يفعل هؤلاء الأطفال في هذا الوقت المتأخر من الليل!!، وقفت بمحاذاة الرصيف وما أن تفطّنوا لوجودي حتى غادروا المكان فرارًا، لم يبقَ منهم إلا طفل واحد كان يجد صعوبة في المشي، لذلك لم يستطع الفرار مثل البقية.

اقتربت منه شيئًا فشيئًا، تراجع خطوات إلى الوراء، التفت عن يمينه وعن شماله، أطرق رأسه ثم جلس على الرصيف، لم يجلس بل وقع جالسًا، أحسست بأنه لا يقوى على النهوض، اقتربت منه فرفع يديه محتجًا:

-أرجوك لا تفعل بي ذلك، أنا مريض، لقد أتعبوني.

صعقت من كلامه فأجبته: -مَ أنت خائف أيها الصغير؟

أجابني بكلمات متقطعة مرتعشة:

-أنت تريد مضاجعتي أليس كذلك؟ أرجوك أنا لم أعد أقوى على الحركة.

كانت الصدمة قد ألجمتني على الكلام، وقفت لبرهة أتأمل الصبي المسكين، كان في حوالي التاسعة أو العاشرة من العمر، كيف لهؤلاء الوحوش أن يدنسوا براءة هذا المخلوق الضعيف. اقتربت منه أكثر وطمأنته.

-أنا لن أؤذيك صغيري، أنا صديقك.

انتابني شعور بالبكاء أحسست بالعالم يضيق بي، يا له من مسكين .. استجمعت قواي تم قلت له بصوت خافت:

-ماذا تريد أن أفعل من أجلك؟

نظر إليّ نظرة متعبة وأجابني:

-أشعر بالجوع.

ناولته علبة شوكولاتة، كنت قد اشتريتها هدية لزوجتي الحامل لكنه أولى بها الآن، سألته وهو يأكل القطع تباعًا بشراهة:

-لماذا أنت في الشارع؟ أين والديك؟

-توفيت أمي .. أمي توفيت تناولت السم، سئمت من هذه الحياة ومن العنف الذي نتلقاه من زوجها .. لا لا، ليس والدي، إنه زوجها، والدي توفي قبل أربع سنوات حينما كنت في السادسة من عمري.

تألمت لحال المسكين، أحسست بسحابة من الكدر والألم تنهش فؤادي، أردت أن أساعده بشتى الطرق، لكن ماذا عساي أن أفعل؟!، رميت في حجره قطعًا من النقود، ثم أكملت مسيري. انتبه إلى وقوع ذلك الشيء في حجره، أخذ القطع النقدية، حدّق بها، التفت إليّ وهو مستلق فوق قطعة من الكرتون احتضنها بقوة، لوّح لي بيديه، ابتسم وفي ابتسامته كانت بقايا قطرات الفرحة الملائكية تتأرجح بين أهداب عينيه الواسعتين.

وجدت نفسي مرة أخرى في دوامة التيه، أضيع في متاهات الزمن، لست أنا ولكن هؤلاء الأبرياء ما ذنبهم؟!!

على الرصيف الآخر بائعات الهوى عائمات في مساحيقهن البراقة، وملابسهن الخليعة، ينتظرن زبائن الليل ... كم تخفي أيها الليل من أسرار، وكم من الكائنات تلوذ بقتامتك، كائنات الهامش حيث كل شيء مباح، فهم خارج الزمن وخارج المكان ...

عدت أخيرًا إلى منزلي، زوجتي المسكينة نامت، فقد طال انتظارها لعودتي، طعام العشاء على المائدة، وبجانبه ورقة كتب عليها لا تتناول طعامك باردًا.

تصفحت هاتفي، فصادفت تدوينة لطالبة الهندسة عفاف فتحي، تتحدث فيها عن أطفال الشوارع، ابتسمت في سري ابتسامة باهتة حزينة، فقد أبى الليل وشجونه إلا أن يرافقني إلى عقر داري.

أفضل ما قرأت

مدونات الجزيرة
عفاف فتحي ١٧-٠٥-٢٠١٧

وسط كومة من الكتب القديمة، عثر الشرطي على جثة شاب ممددة على الأرض وبجانبها ورقة مطوية، فتحها وقرأ: "صباح الخير يا قارئ رسالتي أو مساء الأنوار، لا أعلم .. الأمر سيان بالنسبة لي. فمنذ خمسة وعشرين سنة، لم أعرف طعم الوقت ولا لذة الحياة، رائحة السنوات لا تغريني، وكذا صوت الدقائق على جدران ساعة البيت. لعلك تسأل من أكون؟ من يكون صاحب الجثة بقربك؟ لا تستغرب، أنا أيضًا لا أعرف من أكون .. لا تظن أنني أتفلسف، فأنا فعلًا لا أدري من أي رحم أتيت، وأي دم يجري في عروقي.

ينعتونني "باللقيط" والبعض الآخر يناديني "بمجهول النسب"، وأفضل التسمية الثانية، فهي أقل ألمًا، أما الأولى فأحسها سهمًا قاتلًا يخترق حدود قلبي. يقولون أن محترفات الدعارة لا ينجبن اللقطاء .. لأنهن لا يثقن بأحد، إنما اللقطاء هم أبناء لحظة ثقة. أنا ضحية ذنب لم أقترفه .. أنا ثمن ليلة عابرة .. أنا ثمرة علاقة لم ترقَ لمستوى الحب ..

أنا غباء مراهقة وانجراف نحو شهوة .. أنا وعد ذكر، فاته ركب الرجال ومشاعر أنثى خانت نفسها وثقة والدها .. أنا من كتب على جبيني الشقاء منذ أن أحسست أمي بنبضات قلبي، وتركني أبي وراءه، على ضفاف الأسى والمعاناة.

كنت واحدًا من بين مئات الأطفال مجهولي النسب، وحدها الأم تعتني بتلك التفاصيل .. وأنا لم يكن لي أم! صنعتها في خيالي لتؤنس وحدتي، أغمض عينيّ وأشم رائحتها وهي تداعب خصلات شعري. ومن يدري!، لعل والديّ تخليا عني لأسباب أخرى! لكن لا يهم، فالمجتمع يأبى أن يصدق .. ولست أكثر من شخص يجهل نسبه. تركوني وحيدًا، بعد ساعات من ولادتي، على رصيف مقهى. كان الشارع خاليًا، إلا من بعض المتسولين والكلاب الضالة. سمع أحدهم صراخي ورمق شابة تركض إلى الجهة المقابلة، فحملني إلى مخفر الشرطة، ومن ثم إلى ملجأ الأطفال. أطلقوا عليّ اسم "سعيد"، كي آخذ من لقبي ولو القليل، لكن الحياة أرتني كل معانيها، إلا ذاك المكتوب على سجلي.

حرمت دفء العائلة وحنانها، ذكريات طفولتي تتلخص في كلمتين: "ظلم وبؤس"، والحقيقة أن عمري كله يقبع بين هذه الحروف. لا أحد يتذكر متى ظهرت أول سن في فمي ولا أول خطوة ولا حتى

أول كلمة نطقت .. كنت مجرد رقم لا أكثر بين مئات الأطفال المتخلى عنهم، وحدها الأم تعتني بتلك التفاصيل .. وأنا لم يكن لي أم! صنعتها في خيالي لتؤنس وحدتي، أغمض عينيّ وأشم رائحتها وهي تداعب خصلات شعري وتغني لي ترنيمة ما قبل النوم.

قلت يومًا لأحد زملائي بالملجأ بعد أن سرق قطعة الخبز خاصتي أني سأشكوه لأمي، فضحك باستهزاء وبكيت أنا .. وبكى قلبي الجريح.

كان يزورني بين الفينة والأخرى ذلك المتسول .. نعم الرجل الذي وجدني على حافة الطريق. كنت أحبه .. أحبه كثيرًا، لكن من فرط الألم لم أفكر يومًا أن أعترف له بذلك، كنت أناديه "أبي"، كان ينزعج ويصرخ: "ليس لي أبناء!" لكن نظرات العطف كانت تملأ عينيه .. هو صلتي الوحيدة بماضيّ، في كل مرة، كنت أطلب منه أن يصف لي المرأة التي وضعتني في الشارع، أخبرني أنها كانت ترتدي فستانًا أزرق وذات شعر ممووج، لا شيء غير ذلك.

كلما رأيت سيدة بهذه المواصفات، اهتز قلبي: لعلها أمي! أتردد يوميًا على المكان الذي تركت فيه موطني، من يدري! فقد يحاولون البحث عني! غريب أليس كذلك .. أن تسأل عمن اختار الابتعاد عنك؟ وعلى غفلة مني، مرت سنوات العمر وكبرت .. تغيرت

ملامحي في المرآة، لكن السؤال الذي بداخلي ما زال على حاله، ينهش صدري، كلما ذكرني أحدهم أنني مجرد "لقيط".

لا أحد يتذكر متى ظهرت أول سن في فمي ولا أول خطوة ولا حتى أول كلمة نطقت.. كنت مجرد رقم لا أكثر بين مئات الأطفال المتخلى عنهم.

اضطررت أن أنقطع عن دراستي بعدما تركت الملجأ، هربت من قسوة دار الأيتام إلى قسوة الحياة. بعت المناديل في إشارات المرور وعملت في ورشات الحدادة والنجارة، تحملت حر الصيف وبرد الشتاء، نمت في العراء ليال ولكم حلمت بحضن عائلة يقيني من كل هذا البؤس! إلى أن اشتغلت بمحل للكتب المستعملة، كان صاحبه رجلًا طيبًا، فتح لي قلبه ومنزله. ظننت أن طائر الحظ قد حط على كتفي، وأني سأعيش حياة طبيعية كغيري.

قررت يومًا أن أتقدم لخطبة فتاة أعجبت بها، حلمت بتكوين عائلة وإنشاء موطن تستقر فيه روحي ونفسي، كنت أوقن أن فاقد الشيء يعطيه .. ويعطيه بسخاء، لكن أحلامي تلاشت حين رد والدها قائلًا: "عذرًا، فأنت مجهول النسب".

لست ألومه، فله كامل الحق في معرفة إلى أي أب سينتمي أحفاده. صعب أن تضيع آمالك، لكن ماذا أفعل؟! هذا قدري!، والحقيقة أني تعبت كثيرًا .. تعبت من أن أتظاهر بأني قوي أمام نفسي وأمام نظرة المجتمع .. تعبت من أن أضمد جراح الحياة لوحدي.

مجيئي لهذه الدنيا كان فعلًا خطأ .. فلماذا سجنت نفسي بين قضبانها؟ صار لزامًا أن أرحل ... أعتذر إن أطلت عليك يا قارئ رسالتي، فلست ممن له أم تبكي حزنًا على فراقه، ولا أب يغزو الشيب شعره ألمًا على فقدانه. لكني سامحتهما .. نعم سامحتهما من كل قلبي، ودعوت الله دائمًا في سرّي أن يغفر لهما تلك الخطيئة، تلك الخطيئة التي هي أنا!

ولكم تمنيت أن أموت بين أحضانهما وأن أضمهما إلى صدري بقوة! لكن الزمن اختار أن يطوي حياتي بسرعة ويرميها في صندوق لن يتذكره أحد".

أرجع الشرطي الرسالة إلى مكانها وقد اغرورقت عيناه بالدموع تأثرًا، غطى جثة سعيد، ثم حرر محضرًا بالواقعة: "انتحار مجهول".

عودة للأصل

كل ما في الحكاية أن أرواحنا اشتاقت للبساطة، كاشتياق المغترب لموطنه! تلك البساطة التي ينطق بها كل شيء

كان محمد لا يسير إلا بسير الزمان، لا يعرف للانحراف مسارًا، وكان جل ما يطيب به لسانه هو القرآن، وبما أن الزمان لا يسير وفق حلو اللسان، ولا يستقيم لكلمات تقال، فحتى الأشجار للرياح تنهار.

يذهب محمد صباحًا إلى الغابة لرعي أغنام والده ولا يعود إلا مساءً، تتكفل أخته نجاة بإيصال وجبة الغداء له إلى المرعى، نجاة الفتاة الأربعينية تبدو كالطفلة وهي تخطو بمحاذاة النهر وتنحدر بخطى حثيثة متجنبة ما استطاعت عثرة الحفر الخفية، فقد شاءت الأقدار أن تكون لها عين واحدة بينما الأخرى تغط في نوم عميق، وكأنها تصد عن الجانب المظلم من هذه الحياة.

يمضي محمد يومه الكامل رفقة الأغنام والأبقار، أحيانًا يلاعب كلبه الهولندي الذي يبدو في خطوطه الهندسية البيضاء والسوداء وكأنه مدعو لحفلة كرنفال، وأحيانًا أخرى يلاعب رفيقه في رعي الغنم الكرة، يستأنسان بها لتجزئه وقت يطول ولا يكاد ينتهي.

لا عزاء لمحمد ورفيقه إلا التطلع ليومي السبت والأربعاء، يعدان الأيام، متى يحين هذا الموعد، فهاذان اليومان لهما مكانة خاصة في قلبيهما، إنه المتنفس الوحيد لهؤلاء الرعاة الذين يقضون حياتهم رفقة مواشيهم، يشاركونها العراء والريح والغبار والشمس والحر والبرد والمطر.

يقام سوق الواليدية يوم السبت لذلك يطلق عليه أهل المنطقة "سبت الواليدية"، وهي مدينة ساحلية صغيرة تقع بين الجديدة واسفي، الموطن الأساس لقبيلة دكالة، ولا يحل يوم السبت حتى تبدأ هذه المدينة في استقبال جل القبائل الدكالية، التي تفد عليها للتبضع أو للمقايضة بالسلع، تختلط الأصوات ويرتفع اللغط. الحرفيون والتجار، وبائعو الأعشاب والأسمدة، ومبيدات الحشرات، يتفنن بعضهم في عرض سلعة بواسطة مكبر الصوت:
-"أجي خود سم الفأر مايبقاش أدور عندك فالدار".
وكأن الفأر هو القضية الأساسية في هذا الزمان!

وما تفتأ الشمس تطلع حتى تمتلئ هذه المدينة الصغيرة عن آخرها فتكون المقاهي هي أول قبلة للزائرين من القبائل الدكالية، فالشائع عن الدكالي أنه قد يتخلى عن جل حقوقه، فهو لن يطلب من السياسي إصلاح الطريق أو إعادة هيكلة مدارسه المهمشة أو إصلاح

المستوصف المهترئ الذي أقفل الممرض العجوز أبوابه، خوفًا من انهيار السقف على رأسه بعد أن اتسعت شروخه وشقوقه، قد يتجاوز الدكالي كل هذا إلا لحظة الاجتماع حول أسياخ اللحم المشوي أو طاجين مغربي محترم. إنه الحق الوحيد الذي لن يستطيع السياسي مصادرته من الشعب الدكالي.

وعد الثاني الذي كان ينتظره محمد وغيره من رفاقه الرعاة بشغف وحماس كبير هو يوم الأربعاء الذي يقام فيه سوق ينسب إلى اسم اليوم (سوق أربعاء مول البرغي)، وهو فضاء أسبوعي يأتيه الناس من كل المناطق المجاورة كل وغايته ..

يركب محمد ووالده شاحنة ابن رحال المهترئة وهي وسيلة المواصلات الوحيدة المتاحة بالقرية، يتكدس بها جل ساكني الدوار رجالًا ونساء شيبًا وشبابًا، إنها لا تؤطرها أية قوانين، فلا غرابة أن تجد من ركابها كبشًا أو حمارًا أو عجلًا صغيرًا يشد الرحال معك إلى السوق بينما عجوز منهكة واقفة، ولا غرابة أن تجد دخان السجائر و"الكيف" يغلف المكان، بينما في جانب من العربة يجلس مريض بالسل يسعل ولا يحتج، إنها حياة البداوة، سلوكيات وإن كانت خاطئة إلا أنها تنم عن علاقات اجتماعية تتسم بالصدق والديمومة.

يجلس محمد قرب الباب الخلفي للعربة التي تلتهم في جوفها كل شخص تجده في الطريق، وكلما توقفت يضطر محمد للنزول منها ليصعد الراكب الجديد، تحمل هذه الشاحنة ما لا تحمله الحافلة الكبيرة، فلا قانون سير ينظمها.

تئن العربة عباب الطريق، ترفعها رافعة وتخفضها خافضة، تصل أخيرًا إلى إحدى محطات المراقبة:

-"خفف السرعة الدرك الملكي!!!".

أخيرًا ربما يعاقب السائق "ابن رحال"، لكن ذلك لا يحدث إلا في خيال الأجساد المكدسة في الشاحنة.

-صباح الخير "شاف".

-أوراق العربة من فضلك.

-تفضل سيدي الشاف.

-طريق السلامة.

يخيب ظنك مما توهمته، فابن رحال يغادر المكان بعد أن يكون قد دس شيئًا في يد الدركي، يعطيه الدركي إشارة المرور وينتقل إلى السيارة الموالية.

إنها الساعة السادسة صباحًا كما هو مبين على ساعة محمد الرقمية، الحافلة على مشارف السوق، يبدأ الناس في النزول، كل عربة تقذف أعدادًا من الناس، الرجال بجلابيبهم المخططة والنساء في ألحفتهن المحتشمة.

نزل محمد من الحافلة مزهوًا بحذائه البلاستيكي الجديد، فهو بالنسبة إليه من مؤشرات الأناقة، ورمز من رموز مواكبة الحداثة، محمد يعرف المكان جيدًا لأنه زاره أكثر من مرة، وكما يعرف المكان فهو أيضًا يعرف الوجوه، يتبادل التحية مع هذا وذاك، ثم يقصد إحدى الخيمات المنصوبة في مدخل السوق، وما هي في الحقيقة إلا مقاهي متنقلة، يوفر لك صاحبها كل ما تحتاجه لتخدم نفسك بنفسك، يزود الزوار بكل ما يلزمهم لإعداد فطورهم وينزوي في ركنة، وهذه عادة متداولة في الأسواق الدكالية، داخل المقهى يلتقي محمد بجيرانه ومعارفه، فيتشاركون في إعداد وجبة الفطور الصباحية، يتكفل أحدهم بإعداد إبريق الشاي المنعنع، وهو مكون رئيسي على المائدة، يتفنن البدوي الدكالي في إعداده، بينما ينهمك الآخرون في تقطيع الطماطم والبصل لإعداد طبق شهي من البيض البلدي.

تمر لحظة الفطور في بهجة ومرح، يتبادلون فيها جديد أخبار الدوار، يعرجون أحيانًا في الحديث بغية استفزاز محمد عن أخ "ابن رحال" وهو زوج أخت محمد وعن طرائفه المضحكة، وعن خصامه المستمر

مع زوجته وتعنيفه لها فيمتقع لون محمد ويشتد غضبه، ويغادر الخيمة ليتسكع في فضاء السوق الذي أصبح عامرًا عن آخره، يتفقد مكان بيع المواشي، حيث التجارة الأكثر رواجًا في هذه الأسواق، وحيث ينتشر اللصوص والنشالون في وسط العامة، يستغلون التزاحم والاكتظاظ في المكان فيفتعلون الشجارات ليجتمع الناس ويسهل اصطياد الفريسة، كما حدث مع الرجل المسن المدعو الحاج إبراهيم، لا أعلم إن كان حاجًا فعلًا أم أنه اسم يطلق على المسنين، شيخ تجاوز السبعينيات جاء ببقرته الوحيدة إلى السوق ليبيعها حتى يتمكن من دفع مصاريف استشفاء ابنته المريضة بالسرطان بعد أن أنفق آخر فلس كان قد ادخره لجهازها ونفقات عرسها عندما يأتيها النصيب.

باع المسكين بقرته التي لولا الحاجة لما فرط فيها، فتربصوا به وسلبوه النقود، تحامل الرجل على نفسه حتى وصل بيته وخر صريعًا، أجهضوا أحلامه في علاج ابنته وحرموا ابنته من أب يرعاها ويعطف عليها.

يسير محمد حذرًا بخطوات متقاربة، لكنه يصطدم مع مجموعة من اللصوص الذين حاولوا استفزازه وسلبه ذلك المبلغ الهزيل الذي جمعه وبنى عليه آمالًا ليقتني به جلبابًا جديدًا يتباهى به أمام فاطمة ابنة شيخ القرية.

سوق أربعاء مول البرغي مثله مثل كل الأسواق القروية، هي أسواق للبسطاء والمساكين والبؤساء الذين يعملون كثيرًا ويتقاضون أجرًا زهيدًا لذلك كانت أحلامهم على قدر ما تحتويه جيوبهم، كما أنها فضاءات تهتز فيها القيم وتتضارب، فيها لباقة البائعين وحذاقة التجار والمقايضين، فيها الطيبون الذين يخافون الله ولا يتوقف لسانهم عن الذكر - رغم جهلهم المطبق بمعظم تعاليم الدين، وفيها نذالة اللصوص وخستهم، وهذا ما حدث مع محمد الذي دافع عن نفسه وممتلكاته فطعنوه طعنه بالغة أخدت جزءًا غير يسير من وجهه، طعنة غادرة ستحول حياته فيما بعد إلى جحيم لا يطاق، إنه الآن يحمل وصمة عار وصك اتهام على جبينه، المطعون البريء سيصبح في عرف المجتمع الظالم المذنب، جريمته الوحيدة أنه طُعن بسكين!، نعم إنه مجرم لأن مجموعة من اللصوص اعترضوا سبيله وسرقوه وشوهوا وجهه!، وحتى عندما ذهب إلى مركز الشرطة لم يعيروه أي اهتمام يذكر فهو على أية حال ليس سوى بدوي ساذج في عرف أهل المدينة.

خرج منهكًا من مقر الشرطة، يتحسس الألم في وجهه تحت الضمادات السميكة التي غطى بها الممرض الجرح على وجهه بعد أن خاطه وعقّمه، الشرطة لم تعتبره ضحية تستحق الاهتمام، فلم يكن ما جرى له حريقًا في الغابة ليكون وجهه اهتمام رجال الأمن ...

أنهت الأم كلامها والدموع تنهمر من عينيها بغزارة لطرق باب الماضي، لكن يديها لم تفارق شعر محمد الحريري تداعبه، بينما كان هو يجلس في كرسيه المتحرك جامدًا بدون أحاسيس، الآن لا وجود للطعنة التي حكت لي عنها والدته، لم يعد لها من أثر على وجهه الوسيم.

كنت أقف أمام شخص مجهول، لا أعرف ماضيه ولا حاضره، إن ما أراه أمامي الآن شاب وسيم مفتول العضلات، يجلس على كرسي متحرك، تتصل بيديه وفمه وأنفه مجموعة من الأنابيب، في أصبعه خاتم يلمع، وعلى صدره تتدلى قلادة يتوسطها قلب كبير، لست أدري لِمَ أثار القلب فضولي وغريزتي في اكتشاف بعض الخفايا في شخصية الرجل الساكن أمامي، اقتربت منه مستغلًا خروج أمه من الغرفة، كان جامدًا لم يبدِ أيّة ردة فعل، لكن نظرته إليّ ساعتها كانت تحمل ألف معنى، فتحت القلب فوجدت صورته تقابلها صورة فتاة شقراء جميلة تعلو وجهها ابتسامة عريضة، لست أدري لم أحسست ساعتها بشعور قوي ينبِئُني أن هذه الألمانية الشقراء هي وراء مأساة محمد!!!

عادت السيدة رقية تحمل بيدها طبقًا من الفواكه الجافة، وصينية شاي، طلبت مني أن نغير المكان، انتقلنا إلى غرفة الضيافة العلوية

حيث عرضت عليّ مجموعة من صور محمد، منها صور له في ألمانيا، شاب في منتهى الجمال، استدرت وسألتها:

-كيف حدث هذا؟

احتل الصمت مساحة الفراغ بيننا طويلًا، لم تجبني الخالة رقية بل أعطتني رسالة مكتوبة بالألمانية، وخلفها ترجمة للعربية:

"من السيد ماركو إلى السيدة رقية المحترمة ..

دورتموند، ١٠ أغسطس ٢٠١٣.

شارع لوستا لفيا، رمز ٧٧٧٧٧٦١٠٤

العزيزة رقية:

سيدتي، أتمنى أن تكوني بخير وفي أفضل الأحوال، أتمنى أن يحفظك الرب ببركاته، وأن يعينك على تقبل الخبر اللعين الذي لا أقوى على قوله لك، لكنني للأسف ملزم بذلك، محمد ابنك تعرض لعملية اعتداء من طرف عصابة مجهولة الاسم، تسببت في إصابته بشلل كلي في أطرافه الأربعة، سأتدبر أمر رجوعه إليكم، لأنني قد لا أقوى على رعايته.

تقبّلي مني سيدتي كل الاحترام وتقدير ..

ماركو شميتز"

الحل الوسط

سأعطيك الرضا وأمـوت غمًا .. وأسكت لا أغمك بالعتـاب
عهدتك مرة تنويـــن وصلي .. وأنت اليوم تهويـن اجتنابي
وغيـــرك الزمان وكل شيء .. يصير إلى التغير والذهـــاب
فإن كان الصواب لديك هجري .. فعماك الإله عن الصـــواب"
أبو نواس

مذكرات طالب جامعي

الراحل أنور الكوتي ٢٠١١

صباح غائم، حافلة مدرسية، شاحنة عمال النظافة، زوجة المختار تكنس أمام البيت لساعات متعددة، ترتدي قميصًا عاجزًا عن تمويه أسرار جسدها الذي يتمرد عن أثوابه، سعيد البقال يتغزل بفتاة أصغر من ابنته البكر، محطة الحافلات الجامعية مكتظة، وجوه شاحبة، مسن لا يكف عن الضحك، شاب نجول جلست جانبه فتاة جميلة، شباب يتسللون إلى الحافلة بدون تذكرة، عجوز واقفة لم تجد لها مكانًا تجلس فيه، يتجاهلها طالب فتعطف عليها طالبة، تجلس العجوز، يعطف الطالب على الطالبة.

وصلت الحافلة إلى الجامعة، بدأ الكل يخرج من بابها الخلفي، فإذا بي ألمح مذكرة صغيرة، حملتها لكني أجهل صاحبها، وقفت في موقف الحافلة أنتظر لعلّي أعثر على أحد يسأل عنها، لم يأتِ أحد، فولجت إلى الجامعة والتحقت بمدرج الدرس، كانت حصة مملة أمقتها وبشدة، حملت المذكرة بين يديّ مدون على أولى صفحاتها "الراحل أنور الكوتي ٢٠١١" جذبني أسلوبها الجميل، فقررت قراءتها.

"رأيتها كصديقة فقط، ولا شيء غير ذلك، كنا نعرف بعضنا البعض لسنوات عديدة، ولم أنظر إليها أبدًا سوى كصديقة لي، صحيح أننا كنا على مقربة في الأيام الأخيرة، لكن هذا لم يكن كافيًا لإزالة تلك الحدود التي أقمتها وجعلتها مرتكزًا أقوم عليه وفاصلًا بيني وبينها، لقد أمضينا فترة ما بعد الظهيرة نتحدث ونبتسم على طرائفها المضحكة وقصصها التي تتشاركها مع بعض من الذكور المعجبين بها التي تدّعي سهولة السلب منهم: التعبئات، السندويشات، وحتى المال إن تطلّب الأمر ذلك، باحت لي برغبتها فيّ، كنت لأكون فريستها في أول معرفة لي بها - لولا أن وجدتني أفقر من الفقر بعينه، ولكننا أيضًا كنا ننظر لبعضنا ببطء، حقًا كانت من النوع الذي لا يظهر بسهولة ما يشعر به، كما إنني كنت من النوع الذي يجيد التجاهل ويدّعي الكبرياء، رغم أن نظراتها أسست لنفسها بناء في مخيلتي، ودشنت لها مدخلًا في عمق فؤادي، وفي أحيان كثيرة أتساءَل والحيرة تكسو

موقفي: لماذا هذا التردد منها؟! هل فتر قلبها أحدهم؟! ولماذا هذا العناد يمنعني من البوح إليها؟، إن نظرة الصداقة تحولت إلى حب ينهش فؤادي!، تضرعت بالشجاعة وتنازلت عن عنادي، وأسقطت وشاح كبريائي فاعترفت لها بحبي، لكن هذا الحب لربما انقلب ضدي بالتوتر الذي يعتري وجهها، والإجابة التي لعثمت شفتيها، غير أنني أدركت إنني بين فوز سرمدي وبين خسارة لئيمة، وبين وجه بريء تارة يقف أمامي مبتسمًا، وتارة أخرى مصدومًا مصعوقًا، وكأنني أقول كلمات غريبة ناشزة، ترى أكان حبي خطأ أم أحببت الشخص الخطأ؟!

هذه تساؤلات، وهي حقًا لا تهمني، فحينما أطرحها أشعر كأنني أحمل حجرًا ثقيلًا فوق صدري، وفي كل محاولة للتراجع أو الهرب أجد أن حبها يحاصرني، صارحتها بكل الكلمات وجل معاني الحب التي كنت أنا بمالكها، علمت أنها ليست كافية للتعبير عن حبها، لا أدري ولم أدرِ كيف انفلتت هذه الكلمات من فمي وأي شجاعة انهمرت عليّ في تلك اللحظة منتظرًا ردود فعلها، فقد يكتسي وجهها قناع الغضب وقد تصرخ ملامحها في عينيّ ثائرة، غير أنها كانت على عكس وهم توقعاتي وهي تسأل مستنكرة:

-هل يستطيع صاحب القلب المجروح أن يحب ثانية؟ أو يستطيع قلب جرده بني جنسك من الثقة أن يؤمن بالحب ثانية؟

تم استمرت قائلة:

-يا صلب القلب! يا صلب القلب! لا تبحث عن حل يرضيني ولا تبحث عن حل يرضيك، دعنا نضرب موعدًا في الوسط، ويحلو لك تسميته بالحل الوسط.

كانت تتحلى بالذكاء كثيرًا لتجعل محنتي مسكنة وهادية، لكن كان ذكائي يفوق ما ترنو إليه، أليس الخوف من الحب هو الحب نفسه؟ حتى النوم صدَّ عني في عقل الليل، حملت قلمي لعل به أستطيع التخفيف عن نفسي حيث لا يحاسب قلبي ماذا سيكتب ولا كيف سيكتب، وإذا كتب ماذا سيكون كتب؟!، فالقلوب بعد منتصف الليل مرفوع عنها القلم، هي لم تدرك بعد أن بعض أو جل أو كل كلماتها تحرر حفيظة السعادة في قلبي، وتفكّه من أغلال التعس والكآبة وتحيي الأمل وتبث الراحة، أحببتها حينما تكون مبتسمة، وأحببتها أكثر فأكثر حينما تكون حزينة، فأبحث عن حلول لإرضائها فيتحول حزنها إلى ابتسامة وسعادة أكون أنا صانعها، لكن الرياح التي كانت في صفي وصالحي أتت من حيث لا أشتهي فأبت إلا أن تنقلب ابتسامتها إلى حزن وتعاسة، وأنا زعيم وقتيل حزنها، كيف سأرضيها؟!، فهي واعدتني وأقرت وأكدت لي بأنها لن تنبس بساكن، ولن تبوح بمتحرك، يشفي ويعفي ويرحم قلبي، وقالت بالحرف:

-أتعلم! حتى إن كنت أحبك فلن أخبرك بذلك أبدًا.

علمت حينها أن القلق سلب وخدّر أجزاء قلبها التي تنبض بالسعادة، كنت أغذي في نفسي روح الكبرياء، مشيئة حبها تحتم عليّ أن أتنازل عن طبيعتي ومشاعري تجاه الكل وأكون لها مانحًا، لكن كل محاولتي باءَت بالفشل، فكيف يستطيع التواضع أن يهزم التكبر؟ لم ترضَ ولم ترد مني إرضاءَها، فكان ثمن قلقها أن لا أتذوق للنوم طعمًا إلا بابتسامة مغفرة منها أحس أنها صادقة.

كانت هذه آخر كلمات خطّها صديقي أنور قبل أن يقتل في مقصف الجامعة، رأى الفتاة التي يحبها تجلس بين مجموعة من الذكور يتبادلون الابتسامات، أحس بغيرة أفقدته وعيه، فضرب الشاب الذي كان يداعب خصلات شعرها، انهال عليه صديق ذاك الشاب بالضرب، ثم دفعه ليسقط على حجرٍ، لفظ أثرها أنفاسه الأخيرة، توفي صديقي أنور، نعم توفي جراء حبه لفتاة لم تعره اهتمامًا قط.

انتهت الحصة، وانتهت معها القصة، خرجت مرددًا داخلي كلامًا سمعته ذات يوم، لكني أيقنته اليوم، فما الحب إلا خيال وجنون، وإني لأُنبئك بأن المحب يستحق أن يلقى به في غرفة مظلمة، ويُجلد بالسوط شأن المجانين، وأما السبب في أن المحبين لا يعاقبون على هذا النحو ولا يشفون من علتهم، فهو أن الجنون أصبح شيئًا مألوفًا حتى ليبتلي به الضاربون بالسياط أنفسهم.

فوق القانون

قانون الطبيعة هو الغريزة التي تجعلنا نشعر بالعدالة.
فولتير

كان الجو هذا الصباح باردًا جدًا، لكن بوادر أفوله قد لاحت بعض الشيء بظهور أشعة الشمس التي تغمر المدينة بدفء مستحب، وأنا خارج للعمل أرى أمي وصديقاتها يسترقن النظر من ثقب مفتاح شقه التهامي، من ثقب هذا المفتاح تكتشف مجموعة من الحقائق والأسرار، هكذا كانت تتجسس أمي على أسرة التهامي الذي يعود في أوقات متأخرة من الليل.

تقول أمي لإحدى صديقاتها:
-إنه لبس لباس الخيانة مع موظفة تعمل معه.
وأخرى تقول:
-ربما مع نادلة في مقهى.

هذا حال النساء، الثرثرة، الغيبة والنميمة، آآاه كم ستختفي الكثير من المشاكل إذا تعلم الناس الحديث مع بعضهم بعض أكثر من الحديث عن بعضهم بعض!

اليوم كان يوم طلاق "التهامي" لزوجته "كنزة"، مما زاد قلقي وتوتري كثيرًا، لأنني أحب هذه الأسرة التي أحسنت تربية أبنائها، حمزة ويسرى، لديهم أخلاق حسنة رائعة حفظهم الله ورعاهم.

مر حوالي شهر على الطلاق، الأبناء في حوزة الأم وتحت رعايتها، لكن الابن أصبح مختلفًا، وكأن تلك الأخلاق تملصت منه فأصبح منفورًا من الجميع، حيث كان قبل ذلك محبوبًا ومرغوبًا فيه، أصبح له رفقة سوء، يتعاطون المخدرات ومجموعة من المسكرات، حتى صديقه الذي كان لا يفارقه أصبح اليوم من النافرين له.

لقد عرفت حمزة كجزء من عائلتنا منذ ولادته قبل خمسة عشر عامًا، كان أكثر هدوءًا من أخته الكبيرة المنتهية ولايتها، تلك الشيطانة الشريرة المحبوبة من طرف الجميع، تجعلك تضحك في لحظة غضبك وعند السرور تحولك إلى إنسان عصبي، عكس حمزة حينما أتذكره يحضر في مخيلتي حضورًا ناعمًا وحميميًا، وأحيانًا غير معروف في ظل هذه الأفكار الغامضة التي تنتابني حول فكرة تعاطيه للمخدرات، لكن على الرغم من ذلك إلا أنني كنت مستيقظًا في أواخر الليل خوفًا من أن أتلقى في أي وقت قريب أنباءً عن وفاته.

خلال الشهور القليلة الفارطة كان هذا الطالب مجدًا جيدًا ومجتهدًا في دراسته، فأبت الأوقات إلا أن يتم امتصاصه ببطء وبلا هوادة من طرف عصابة مخدرات في مدينتنا، تم إعداده أولًا بواسطة شبكة إجرامية منظمة، كان جل وكل أهدافها أن تلعب على سذاجة المراهق المسكين، وتوهمه بمخططها النموذجي بأنه على خلاف مع العالم وأنه عدو للكل، ثم تجعله ضحية لتعاطي المخدرات لربطه بعالمهم المتسخ، حاله كحال جميع المراهقين الذين سبقت عملية دمجهم في مرحاض المخدرات، وبعد ذلك يتعرضون لكل أنواع العنف من ضرب ووحشية في التعامل من أجل إرغامهم على السفر لمسافة طويلة لبيع المخدرات في نظام يعرف "بتجارة الزطلة".

لاحظ جل أطراف عائلته عقم ابتسامته وحلاوة حديثه، وتحوله من شخص اجتماعي إلى شخص إن صح القول "فرداني" بطبعه، لقد حاول الكل على نحو شامل ودون توقف أن يعيدوه لطبيعته، كما استغربوا من مكوثه ليال متعددة مع من يدّعي صداقتهم رغم أنهم يتجاوزونه بعقد من الزمن، فقام والده بتنبيه بعض أفراد الشرطة بعد غيابه ليلتين عن المنزل، ثم ذهب لزوجته قائلًا:

-من فضلك كنزة، المسألة تتعلق بنا، نحن الاثنين، وأنا لست هنا من أجلك، أنا هنا لأجلنا جميعًا.

نظرت إليه ببطء شديد، ثم صرخت في وجهه:
-أنت سبب كل هذه المشاكل.

بينما هي تصرخ محتجة على وجوده في البيت لم يعرها أي اهتمام، اتصل مرة أخرى بضابط الشرطة وأخبره عن الذين يأتون لمقابلته بمجرد عودته إلى المنزل ويذهب معهم.

كان السيد التهامي يعلم أن الاتصال بالشرطة قد يعرض ابنه للخطر، لكن هذا نتيجة لإخفاق الجميع بشكل فردي وجماعي في إعادته إلى عالمه، العالم الذي كان يشعر فيه بالأمان والراحة.

الليلة التاسعة وحمزة لم يعد إلى المنزل، إلا أن الخيوط بدأت تكشَّف بعد أن تلقى اتصالًا مجهولًا من أحد قادة العصابة الذي علم بإخبار العائلة للشرطة، رفع السيد التهامي من صوت سماعة الهاتف، وأنصت لصوت يتحدث بلغة التهديد:
-لا يوجد سوى خيارين متبقيين لحمزة: السجن أو الموت بالطعن.
إنه خيار مدمر من المستحيل فهمه.
في بعض الأحيان نحلم بالاحتفاظ به بطريقة أو بأخرى لفترة طويلة بما يكفي لنقله إلى مكان ما في أي منطقة بعيدًا عن هذه المدينة ومن هؤلاء المجرمين حتى نتمكن من تخفيف الرعب عنه وضمانًا

لسلامته، لكن إذا ما حدث هذا سيجدونه مرة أخرى ويعاقبونه، إنها مجرد أفكار تنتابني لدرجة سذاجتي في بعض الأحيان، كوننا نفتقده حر الافتقاد.

وما إن أوشك على الانتهاء من مكالمته حتى قال:
-اطمئنوا، إنه بخير وسيعود عاجلًا إلى المنزل، لكن إياكم وأن تبلغوا الشرطة.

لقد عاد بالفعل إلى المنزل مصابًا بكدمات وجروح في جسده، ومن الواضح أن حمزة قد أصيب بسكين، ذهب به والده إلى المستشفى لكنه أخبر الأطباء أن هذا حدث عندما سقط عن دراجته، لكن الحقيقة لن يواريها التراب عن والديه بعد الغياب، ظهرت عليه ملامح الجوع ووجهه غير المغسول، مع رائحة كريهة من ثيابه التي لم تتغير منذ مدة تكسوها نكهة رائحة القنب.

فالذي تعود أن يهتم بابنه ومراعاة أحاسيسه والإصغاء لحاجياته لا يمكن أن يكون سجانًا في يوم من الأيام، وهذا الإحساس جعلهم يعطونه حرية مقيدة ببعض التعقبات المختلسة والتي كان الهدف منها معرفة أطراف صداقته بتساؤلات مبهمة، من هم؟ ومن يكونون؟ ومن أين هم؟

وفي إحدى الليالي العاتمة، تعقبه والداه وهو يتسكع مع هؤلاء "الأصدقاء" الجدد الذين تحولوا إلى رجلين في منتصف العشرين من العمر، لم ينفلت حمزة من تتبعات والده حتى ولج شقة للإسكان مع أصدقائه الجدد الذين لم ترتح لهم والدة حمزة، ومن عسى أن يحس بمصلحة الابن إلا والدته، وقد يسأل أحدكم لدرجة تشنج عقله: ألم يحاولوا إيقافه في المنزل؟؟ لكن قبل أن تسأل - نعم بالطبع حاولوا إيقافه.

لقد كنت هناك وحاولت أيضًا، حتى نضطر في بعض الأحيان إلى حظر باب المنزل، لكن دون جدوى، لأنه يبدأ في التسلق من النافذة. فيقول أحد رجال الشرطة لوالده:

-كن أكثر صرامة.

ما يقصده هو استخدام العنف لمنعه من مغادرة المنزل، لأن هذه العصابة تكرهه على أن يأتي إليها رغمًا عنه، لكن يجب أن تكون عائلته أفضل من ذلك وألا تفعل شيئًا لقطع شريان الحياة الذي مايزال منزله يمثله. إذا تم كسر هذا الشريان فسيضيع حقًا، وكل ما يتبقى هو دموع من الحسرة والاتهام الذاتي.

ليس لدى والديه أي سبب لإلقاء اللوم على أنفسهم، على الرغم من أنهم يعيشون منفصلين، إلا أنهم كانوا كثيري الاهتمام بأطفالهم، وقد يظهر هذا الاهتمام من إلحاقهم كلا الطفلين إلى مدارس خاصة وجيدة.

كان هذا الصبي البالغ من العمر خمسة عشر عامًا وهو قاصر يقيم في شقة طوال الليل مع رجلين بالغين دون إذن من والديه. أبلغوا الشرطة والدوائر الاجتماعية عن ذلك، وأعطوا العنوان، وتبادلوا المعلومات التي التقطوها أثناء جلوسهم في الخارج من جيران الشقة التي تورط ساكنوها بتجارة المخدرات.

لم يذهب أي ضابط في أي وقت مضى إلى تلك الشقة.
ما زلت لا أفهم لماذا لا؟
حتى لو كانت أخبار المتاجرة في المخدرات مجرد حكاية صغيرة للجيران، كان هناك طفل يستمتع بها طوال الليل ضد رغبات والديه.

توصّل حمزة إلى استنتاج واضح من الحلقة بأكملها - أنه عندما أخبره "أصدقاؤه" أن الشرطة لا تستطيع لمسه، كانوا على حق.

بعد يومين، اتصلت والدته بأمي في وقت متأخر من الليل. تم إلقاء القبض على حمزة في إحدى مقاهي السوق الرئيسية في أولاد تايمة بصحبة شخصين بالغين مختلفين معروفين بتجارة المخدرات. لم يتم العثور على أيّة مواد غير قانونية لديهم، ولكن تم العثور على آثار لزيوت التشحيم المعروف استخدامها من قبل مهربي المخدرات لتمكينهم من إخفائها داخل الجسم. وحتى الآن لا أصدق إنني أكتب هذه الكلمات لأنها كانت بمثابة صاعقة تلقيتها.

سارع والداه إلى مركز الشرطة حيث كان يحتجز حمزة، هنأهم الضابط المسؤول والعديد من رجالات الشرطة على جهودهم وتضحياتهم، فقرروا أن يرسلوه إلى مركز صحي ليتعالج قليلًا وهيأوا له طبيبًا نفسيًا ومحفزًا اجتماعيًا من أجل خروجه من هذه الانتكاسة.

حقًا كأن حمزة من المحظوظين، ومع ذلك كان رد فعله هو أن يكون غاضبًا تمامًا من والدته وأبيه. أخذوه إلى المنزل، على أمل أن صدمة الاعتقال تعني أنه قد وصل أخيرًا إلى الحضيض وأن يبدأ في الاستماع إليهم. لكن أبت الأمور إلا أن تثبت العكس بعلمهم أنه لم يتم اتخاذ أيّة إجراء آخر ضد هذين الرجلين اللذين قبض عليهما.

مرة أخرى أنا في حيرة من أمري، ألم يكن وجود زيوت التشحيم دليلًا كافيًا على الإساءة والاستغلال؟!!

على ما يبدو لا، يبدو أن الأمر يتطلب مستوى أعلى وغير واقعي من الإثبات، حتى البالغ من العمر خمس عشرة سنة والذي تعرض للرعب من قبل "أصدقائه" بتهديدات بما سيفعلونه له ولأسرته إذا قدم أي اعتراف ضدهم، يجب عليه توجيه أصابع الاتهام إلى أشخاص لديهم في ذهنهم، أثبت بالفعل أنهم فوق القانون ...

عليكم أن تعرفوا إنني لا أستخدم اسمه الحقيقي هنا، أو اسم العجوز الذي أخبرني عنه، لأنني ببساطة لا أعرف أي طرف منهم، حتى إنه لم يعطني تفاصيلًا جغرافية دقيقة ولا أي تفاصيل، لأنها ستعرضه هو وعائلته فقط لمخاطر أكبر. ولكن هناك قضايا تكشف عنها هذه التجربة والتي يجب بثها إذا أردنا تجاوز هذه الآفات، والتصدي لجريمة السكين ونشاط العصابات، ثم تجار المخدرات ليسوا الصغار منهم الذين يعتبرون هذه الحرفة بمثابة لقمة عيش، لكن نتحدث هنا عن الرؤوس الكبيرة والتي قلنا عليها سالفًا "فوق القانون" ولا بأس في أن نطرح بعض الأسئلة الفاترة لإعادة التفكير:

- لماذا تشعر الشرطة بعدم القدرة على تحدي المجرمين الذين يديرون هذه العصابات ومواجهتها قبل وقوع الكوارث؟
- ما الذي يربط أيديهم خلف هذه القضايا؟ ولماذا لا يملك العاملون الاجتماعيون سوى القليل من الأدوات التي تمكنهم من أداء وظائفهم التي تدعم هؤلاء الأطفال المستضعفين؟ وحتى أولئك المدمنين على الكحول وغيرها من المواد المسكرة، بصيغة أخرى لماذا لا تحارب التجارة في المخدرات من أصلها؟

إنها أسئلة تنتظر منا أن نجيب عنها، لكن نحن نتأسف لأن هناك ما هو "فوق القانون" ...

الرحلة الطويلة

لو كان العالم في كفة، وأمي في كفة، لاخترت أمي.
جان جاك روسو

في ظهيرة خانقة، بينما نعيش في هذه الأيام مع أشد فصول العام حرارة، حيث يعاني الناس فيه الحر والتعب، فالشمس فيه تزداد توهجًا وسطوعًا، وترسل سياط لهيب موجع للأبدان، فيهرب الناس منها يلتمسون الظل الظليل، والماء البارد، والهواء العليل، كانت امرأة في الستينيات من عمرها، مبين عليها التعب كونها محمّلة بكيس بلاستيكي يبدو من منظره ثقيلًا، أعطته إياها مشغلة كانت تشغلها في بيتها كخادمة تصبين وتنظيف منزلها، يتضمن هذا الكيس بعض الخضر القديمة، وبقايا الأكل والدقيق وبعض الثياب القديمة، تسير هذه المرأة المسكينة بخطوات متثاقلة وأشعة الشمس الخشنة تلسع وجهها بلهيب حار فيتصبب العرق منهمراً من جبينها، فإذا بشاب يلوح بيديه من بعيد وينادي:

-جدتي! جدتي!

وبعد وصوله إليها قال:

-دعيني أحمل عنك هذه الأثقال يا جدتي.

فقالت الجدة والتعب بادٍ على وجهها المجعد:
-تفضَّل يا بني!

راح الابن يحمل عن جدته ذلك الكيس، وبعد قطعه مسافة قصيرة أحس بثقله، ثم تنهد طارحًا سؤال:
-جدتي، سيارة الأجرة لا تتجاوز كلفتها عشرة دراهم، كان من الأجدر اللجوء إليها ضمانًا لراحتك، وتقليصًا للتعب عنك، أليس كذلك؟!

اكتفت الجدة بالرد عن هذا السؤال بسؤال آخر:
-ألم تقل يا بني إنك تحتاج مصاريف رحلة مع أصدقائك؟

لسعه الصمت بوخزه، هذا السؤال كان سؤالًا مبهمًا، فاترًا، مرتبكًا بيد أنه لم يحرك ساكنًا، فالساكن عنده علق في وحل الارتباك، كان حقًا سؤالًا حمل في طياته حمولة من المعاني والأبعاد، وكان رمزًا من رموز التضحية التي في العادة ما تقدمها الأم والمرأة إجمالًا، تضحية لا تشترى بالذهب والفضة ولا حتى المال، تضحية لن تعوض حقًا مهما حاولنا ذلك، الأم هي نبع الحياة، وهي الشمس التي تنير حياتنا، وهي النور الذي يضيء طريقنا في ظلمات الحياة، هي من تلجأ لها في أشد الظروف قسوة فتجدها بانتظارك لتمسح

الهموم عن صدرك، هي أول من يفرح لك، وأول من يقف معك ويواسيك في حزنك، نعم هي الأم، أعظم وأحن مخلوق على هذه الأرض، فمهما حاولنا أن نوفيها جزءًا من تعبها ومدى تحملها عجزنا عن ذلك.

أخيرًا وصلا إلى المنزل وفي ليلة قائظة لم يطاوعه فيها النوم ترك عينيه تطوفان أرجاء الغرفة، تسبحان الجدار من الأعلى إلى الأسفل، يتقاطع ألم الجدة التي تتكبد العناء من أجله وألم الأم الميتة جراء رؤية صورتها على الجدار، وهنا اغرورقت عيناه بالدموع اشتياقًا لها، إنها أمه الغالية التي يشتاق لها يومًا بعد يوم، ينحني على ركبتيه، دموع تنهمر من عينيه، يضم الصورة لصدره، يدعو الله بصوت خفيض:
-اللهم يا رحمن ارحمها برحمتك يا رب، واجعل آخر عذابها عذاب الدنيا، اللهم واسقها من حوض نبيك محمد - صلى الله عليه وسلم - شربة هنيئة مريئة لا تظمأ بعدها أبدًا، اللهم أبدلها دارًا خيرًا من دارها، وأهلًا خيرًا من أهلها ...

ثم يضع صورتها أمام ناظريه ويقول:
-لن أنساك مهما ابتعدت عني، أاااتعرفين لماذا؟ لأنك محفورة داخل قلبي، موجودة في حفرة عميقة جدًا لا يستطيع أحد فتحها.

مايزال رحيلها فاجعة بالنسبة للمسكين، ومازالت دموعه تنهمر في كل يوم، بل في كل ساعة يحتاجها ولا يجدها يصرخ ألم الشوق داخله، يقول رحمان خضير عباس:

"إلى روح أمي، علمت بموتها بعد عقد من السنين.
امرأة بحجم الوطن.
حينما غادرتها مرغمًا .. ظل اسمي يرفرف على شفتيها اليابستين
حتى انطفأت روحها الطاهرة ..".

أخيرًا قرر الرحيل من المنزل، على أيّة حال هو تجاوز سن الرشد، يمكنه أن يتدبر نفسه مقررًا ترك الجدة مع الإخوة الصغار، فهذا حسب ظنه راحة لها وتقليص التعب عنها، حمل حقيبته، وضع بداخلها مجموعة من الكتب التي يعشقها وبعض الأقمصة وصورة أمه، فتح باب الغرفة بحذر كي لا يوقظ جدته، فهي تغط في نوم عميق، لمح تفاصيل وجهها المجعد الذي أفنته كخادمة بيوت بأثمنة بخسه، تتحمل جميع أعباء منزل السيدة التي تعمل فيه، من حمل الأغراض الثقيلة وتصبين الثياب، بل حتى ثياب زوج ربة البيت الداخلية.

أراد تقبيل جبينها وحبات العرق تنصبب منه، تفيض بريح الأمومة لكنه لم يقدر خشية إيقاظها، غارقًا في متاهة الرحلة الطويلة ...

١٤١

يمر الوقت بطيئًا، استلقيت على فراشي علّ النوم يزورني ولكن ذلك ظل مستعصيًا عليّ، هناك خطب ما يزحف في ثنايا الزمن نحوي، اجتاحتني رجفة برد قوّضت كل جسدي، دثّرت نفسي بمزيد من الأغطية واستسلمت لقدري، كانت نهاية أسبوع صعبة للغاية.

يوم الإثنين، بدأت حالتي تسوء أكثر، انتشر الألم في جسدي، وبدأت أشعر بتقلص في عضلاتي، تناولت بعض المسكنات لكنها لم تسعفني، ثم بدأت تنتابني نوبات من السعال الحاد تهز صدري وتنخر أعماقي، تساءلت بحرقة ومرارة أتكون هذه بوادر الفيروس اللعين؟ هل أنا مصابة؟ كيف حدث ذلك؟ لم أغادر بيتي منذ أسبوعين، أتكون المرة الوحيدة التي زرت فيها دكان البقالة قد ضربت فيها أيضًا موعدًا مع الفيروس؟!!

أفكار كثيرة كانت تجتاحني وأنا أستشعر الوجع ينهش جسدي، كانت كلها أفكارًا سوداوية، ليست فيها نقطة ضوء واحدة، تلك الليلة ازدادت حالتي سوءًا وانهرت تمامًا، يا إلهي!! لقد اندلعت الحمى

أشعر بجسدي يشتعل، صداع فظيع يكسر رأسي، لم أستطع أن آكل شيئًا، كنت أتقيأ وأصرخ بشكل هستيري، ثم بدأ الاختناق يجثم على صدري، بتُّ أتنفس بصعوبة.

لم أعد أعي ما حولي، لقد انهرت تمامًا، كان ابني البكر يطلب الإسعاف، سمعت الرقم ١٤١ فأيقنت أنها النهاية.

وصل المسعفون، قال أحدهم حالتها سيئة جدًا، وصّلوني بأنبوب الأكسجين، وحملوني إلى سيارة الإسعاف بين غيبوبتي ويقظتي، تتراءى لي أشباح بيضاء بلباس يشبه لباس الفضائيين، كانت أمي قد وصلت في تلك اللحظة، لأن أحد أبنائي اتصل بها، كانت عاجزة تمامًا ومذعورة لكنها لم تستطع الاقتراب مني، أمي كبيرة ومريضة إذا انتقلت إليها العدوى ستموت.

ها نحن نلجُ باب المستشفى المركزي للمدينة، المتخصص في استقبال حالات "الكوفيد"، أدخلوني إلى قسم المستعجلات، كان هناك حشد من الناس يبدو الهلع جليًا على وجوههم، الكل هنا من أجل إجراء الاختبارات المجهرية للتأكد من وجود الفيروس من عدمه، عشرات المرضى يمرون أمامي على كراسي متحركة أو أسرَّة المستشفى المتنقلة أو على أقدامهم.

الكل هنا يجمعهم قاسم مشترك، الخوف الغريزي من الموت، والمعاناة مع بعض موظفي المستشفيات الذين لا يحسنون التعامل مع المرضى، ناهيك عن ضعف مؤهلات المستشفى وإمكانياته.

انتقلنا إلى غرفة التحاليل، حيث طابور من المصابين ينتظرون دورهم، بعد أن نادى حارس الأمن على اسمي، الكل هنا يعمل بكد، فالوضع ليس عاديًا، أدخلوني غرفة الاختبار، قالت الممرضة:
-الآن يجب أن آخذ عينة من أنفك لكي نجري الاختبار، ثم يلزمك تحليلًا للدم، وأشعة سينية للصدر.

شعرت بضربة موجعة، كل ما كنت أفكر فيه هو "ما الذي يحدث يا الله؟!"

كان عليّ وأنا الخائرة القوى أن أنتظر من جديد دوري أمام غرفة الأشعة، ممددة في سرير المستشفى بين طابور المرضى الذين ينتظرون أن تشق الأشعة السينية عن صدورهم، السعال ينهكني، سعال جاف يحرق حنجرتي ويزلزل صدري.

أخيرًا وصل دوري، أجريت الأشعة وخرجت، كان الطابور قد بدأ ينقص شيئًا فشيئًا، وكانت الممرضة تخرج في كل مرة بملف لمريضين أو ثلاث تعرضه على الطبيب.

-نتيجة التحاليل إيجابية، كما عندك أيضًا التهاب حاد في الرئتين، ويجب أن تكوني على الأكسجين سبع ساعات في اليوم.

في مرحلة ما، شعرت بألم شديد في صدري، كما لو كنت أضغط بألواح من الخرسانة عليه، قالوا لي إن الفيروس يهاجم رئتي وأعطوني جرعة من المورفين، الوجع يكبر ويكبر، لم أعد أتحمل، صرخت:
-لا أستطيع تحمل هذا بعد الآن! لا يمكنني الاستمرار!

لم يكن هناك سوى أربعة أسرَّة في الحجرة، وكلها لمرضى "كوفيد" الذين جاءت نتائج تحاليلهم إيجابية، ولكل منهم في الأصل مشكلة صحية سابقة.

لا أتذكر الكثير عن الأيام الأولى، كنت هائمة في عالم آخر، الموت يخيّم على سمائي، وكما أن تفكيري قد شل، فقط الممرضات يدخلن ويخرجن طوال الوقت، بلباسهن الفضائي، والمنظفات يأتين لتطهير كل شيء .. لقد كنت ضعيفة جدًا، كل ما استطعت فعله هو الصلاة، الممرضات كن يعملن بشكل متواصل،كن خائفات وعصبيات، كيف لا وهن يعشن بعيدًا عن أسرهن ويحضرن لحظات احتضار الكثير من المرضى.

أذكر المرأة في السرير المقابل لي، اشتد عليها المرض ذات ليلة، شعرت بالحزن والخوف في نفس الوقت، على بعد خطوتين من سريري امرأة تحتضر، لم يسبق لي أن حضرت تفاصيل الموت عن قرب، شعرت أن قلبي سيتوقف عن النبض، السعال اللعين تمكن مني والحرارة تشعل جسدي، حينها بدأت بالهلوسة.

كان شريط من الأحداث والأشخاص يمر أمام عيني، هل أنا على قيد الحياة؟ هل ما أراه الآن يعني أنني أنتقل إلى الموت؟ تذكرت أنني قرأت هذا في مكان ما، نعم، شريط حياتك يمر أمامك في لحظات احتضارك!، لا .. لا أعتقد أنني ميت، لأنه لا يوجد ضوء أبيض ولا ملائكة ولا أحد يناديني.

في الساعات الأولى من تباشير الصباح، الممرضة تكلم أحدًا على الهاتف:

-البقية بحياتكم، لقد رحلت.

ماتت المرأة المسكينة، على من الدور الآن، انتظرت أن يدخل أحد لإخراج الجثة من الغرفة، لكن لم يحدث شيء من هذا، ظل الموت يحدق فينا من أعلى الغرفة يبحث عن جسد آخر ينهشه أو يراقب السيدة التي وضع حدًا لنبضها منذ ساعة.

في النهاية حضرت ثلاثة ممرضات أخريات، لم يسبق لي رؤيتهن، أقفن ستارًا يحول بيننا وبين معاينة المشهد، سمعت خشخشة مادة بلاستيكية، وسلاسل تفتح وتغلق، ثم بدأ العد "واحد ... اثنان ... ثلاثة".

الصوت الذي أحدثه هذا الجسم عندما اصطدم بعربة معدنية ... لا يمكن أبدًا أن يُنسى ... جاء عامل نظافة رش المكان بالمعقم، ثم ببساطة أُسدل الستار على رحلة حياة أنهاها هذا الكائن الدقيق اللعين.

بدأ المشهد يتكرر في الأيام التالية، الموت يزور الغرفة ويزور الجناح يوميًا، يتصيّد له فريسة ويرحل، وتتكرر الخشخشة وصوت السلاسل والعد، لقد كافحت من أجل البقاء على قيد الحياة، بعد أن كنت على وشك الاستسلام للموت، قلت في نفسي:
-يجب أن أقاوم وأن أنتصر، لن أرحل الآن، عمري تسعة وأربعين سنة، لست مستعدة للموت، ليس فقط من أجل نفسي، ولكن هناك أطفالي وعائلتي ينتظرون عودتي.

كانت شقيقتي نجاة وشقيقي أمين يرسلان إليّ رسائل الحب والدعم والتشجيع يوميًا، وكنت من أجل كل هؤلاء أتمسك بالأمل.

كان الثامن من أبريل، أتذكر أنني رأيت البدر ليلًا، وفكرت في نفسي أن هذه بداية دورة قمرية، وقد تكون بداية حياة جديدة لي. في نفس اليوم، اختبروا مستويات تشبع الأكسجين في الدم لديّ، ونشاطاتها، قال الطبيب:

-لقد نجحت للتو، أنا سعيد بإخبارك أنك شفيتِ تمامًا.

كنت متحمسة جدًا، أخيرًا سأذهب إلى منزلي، كان الجو باردًا، شعرت بالهواء يلفح وجهي وكنت مبتهجة، لا أعرف اسم سائقة سيارة الإسعاف، لكنها كانت ملاكًا، لقد بدأت نوبتها في الساعة السادسة صباحًا، لكنها أتت لتسعفني في الثانية عشر ليلًا، لقد كانت تعمل لثماني عشرة ساعة متواصلة، الأطباء والممرضون يداومون ولا يغادرون المستشفى، أطقم الإسعاف، الإداريون في مكاتب الاستقبال في المستشفى، عمال وعاملات النظافة، الأستاذ الذي يسهر على تعليم أولادي رغم هذه الظروف، رجل الأمن الذي يخاطر بحياته ليحمينا.

لقد لامست الموت، وأنا محظوظة للغاية لكوني على قيد الحياة، ما أتطلع إليه الآن هو تقدير الطبيعة، أصبحت أدرك أن الأشياء المادية لا تهم. عندما أعود إلى حياتي سأتنفس الهواء، وأستمع إلى شدو الطيور وأستمتع بجمال العالم الخارجي.

الفهرس

الشيطان في حضرة النساء.....٧
جزاء القمار ٣٢
جرعة من الواقع..... ٤١
أفضل ما قرأت ٥١
عودة للأصل.....٥٦
١٤١..... ٨٤
الفهرس ٩١